

القسم الأول
فى أدب الكاتب وصناعته
وفيه بابان
الباب الأول
فى آداب العلم والتعليم
وفيه ستة فصول
الفصل الأول
فى شرف العلم

إِعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مَا رَغِبَ فِيهِ الرَّاعِبُ. وَأَفْضَلُ مَا طَلَبَ
وَجَدَ فِيهِ الطَّالِبُ. وَأَنْفَعُ مَا كَسَبَهُ وَافْتَنَاهُ الْكَاسِبُ. لِأَنَّ شَرْفَهُ
يُنْمِرُ عَلَى صَاحِبِهِ. وَفَضْلُهُ يَنْمِي عَلَى طَالِبِهِ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ
مَرْوَانَ ^(١) لِبَنِيهِ يَا بَنِيَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ كُنْتُمْ سَادَةً فُقُتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو الوليد من أعظم
الخلفاء ودهانهم. نشأ فى المدينة فتيها واسع العلم، متعبداً، ناسكاً، وشهد
يوم الدار مع أبيه واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ عاماً وانتقلت إليه
الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جباراً
على معانديه، قوى الهيبة واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد
الله ابن زبى الزبير فى حربهما مع الحجاج الثقفى. ونقلت فى أيامه الدواوين من =

وَسَطًا سُدَّتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ سُوقَةً عِشْتُمْ.
وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ فَإِنَّهُ يُقَوِّمُكَ وَيُسَدِّدُكَ صَغِيرًا.
وَيُقَدِّمُكَ وَيُسَوِّدُكَ كَبِيرًا. وَيُصْلِحُ زَيْغَكَ وَقَاسِدَكَ. وَيُرْغِمُ عَدُوَّكَ
وَحَاسِدَكَ. وَيَقْوِمُ عَوَجَكَ وَمَمِيلَكَ. وَيُصَحِّحُ هِمَّتَكَ وَأَمْلَكَ. وَقَالَ
مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ^(١): تَعَلَّمَ الْعِلْمَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ جَمَالًا.

= الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من
صك الدنانير في الإسلام، وكان عمر بن الخطاب قد صك الدارهم. وكان يقال:
معاوية للحلم. وعبد الملك للحزم.. ومن كلام الشعبي: ما ذكرت أحدًا إلا وجدت
لي الفضل عليه إلا عبد الملك، فما ذاكرته حديثًا ولا شعرًا إلا زادني فيه، وكان
أبيض طويلًا أمين رقيق الوجه. أفوه مفتوح الفم مشبك الأسنان بالذهب، مقرون
الحاجبين مشرف الأنف، ليس بالنحيل ولا البدين، أبيض الرأس واللحية، ونقش
خاتمه "آمنت بالله مخلصًا" توفي في دمشق.

انظر المزيد: الكامل ٤/ ١٩٨، تاريخ الطبری ٨/ ٥٦، تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٤،
ميزان الاعتدال ٢/ ١٥٣، المحبر ٣٧٧، مروج الذهب ٢/ ٨٦ - ١٠٣، تاريخ
يغداد ١٠/ ٣٨٨، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٨ - ٣١١.

(١) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي أبو عبد الله أحد
الولاة الأبطال في صدر الإسلام. نشأ بين يدي أخيه عبد الله بن الزبير فكان عضده
الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق وولاه عبد الله البصرة سنة ٦٧ هـ فقصدها
وضبط أمورها وقتل المختار الثقفي. ثم عزله عبد الله عنها مدة سنة وأعادها في
أواخر سنة ٦٨ هـ وأضاف إليه الكوفة، فأحسن سياستهما. وتجرد عبد الملك بن
مروان لقتاله، فسير إليه الكوفة، فأحسن سياستهما. وتجرد عبد الملك بن مروان
لقتاله، فسير إليه الكوفة، فأحسن مصعب يفلها حتى خرج إليه عبد الملك بنفسه.
فلما دخل العراق غنزل مصعبًا قواد جيشه وأصحابه، فثبت فيمن بقي معه، =

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ مَالًا. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ^(١) لِبَنِيهِ

= فأنفذ إليه عبد الملك أخاه محمد بن مروان فعرض عليه الأمان وولاية العراقين أبداً مادام حياً ومليونى درهم صلة، على أن يرجع عن القتال، فأبى مصعب، فشد عليه جيش عبد الملك فى وقعة عند دير الجاثليق "على شاطئ دجيل من أرض مسكن" وطعنه زائدة بن قيس السعدى "أو عبيد الله بن زياد بن ظبيان" فقتله وحمل رأسه إلى عبد الملك وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام وكانت فى البهيساوية بمصر قبيلة تنسب إليه تعرف ببني مصعب. كان مولده سنة ٢٦ هـ/ ٦٤٧ م ومات سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

انظر المزيد فى: تاريخ الإسلام ١٠٨/٣، طبقات ابن سعد ٥: ١٣٥، تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٥، نسب قريش ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل الوزير السرى الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم وهو مؤدب الرشيد العباسى ومعلمه ومربيه، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل. فكان يدعو: يا أبى وأمره المهدي سنة ١٦٣ هـ وقد بلغ الرشيد الرابعة عشرة من عمره أن يلازمه ويكون كاتباً له وأكرمه بمائة ألف درهم وقال: هى معونة لك على السفر مع هارون. ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى يجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه فى الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م وكان مولده ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم، أخباره كثيرة جداً. قال المسعودى: كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الجسنة. من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً. ويستفاد من كشف الظنون أن أول من عنى بتعريب المجسطى يحيى بن خالد، فسره له جماعة ولم يتقنوه فأتقنه بعدهم بعض أصحاب بيت الحكمة. ومن كلام يحيى لبنيه: اكتبوا أحسن ما تسمعون وأحفظوا أحسن ما تكونون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون.

عَلَيْكَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْعِلْمِ فَخُذْ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَرْءَ عَدُوٌّ مَا جَهِلَ وَأَنَا
أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ عَدُوًّا شَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ. وَأَنْشُدْ:

تَقْنَنْ وَخُذْ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ فَإِنَّمَا

يَفُوقُ أَمْرُوهُ فِي كُلِّ فَنٍّ لَهُ عِلْمٌ

فَأَنْتَ عَدُوٌّ لِلَّذِي أَنْتَ جَاهِلٌ

بِهِ وَلَعَلَّمْ أَنْتَ تُتَقِنُهُ سِلْمٌ

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: كُلُّ عِرْزٍ لَا يُوطِّدُهُ عِلْمٌ مَذَلَّةٌ وَكُلُّ عِلْمٍ
لَا يُؤَيِّدُهُ عَقْلٌ مَضِلَّةٌ. وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِالنَّاسِ خَيْرًا جَعَلَ الْعِلْمَ فِي مُلُوكِهِمْ وَالْمُلْكَ فِي عُلَمَائِهِمْ. وَقَالَ
بَعْضُ الْبُلَغَاءِ الْعِلْمُ عِصْمَةُ الْمُلُوكِ لِأَنَّهُ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ. وَيَرْدُّهُمْ
إِلَى الْحِلْمِ. وَيَصُدُّهُمْ عَنِ الْأَذْيَةِ. وَيَعْطِفُهُمْ عَلَى الرَّعِيَةِ. فَمَنْ حَقَّقَهُمْ
أَنْ يَعْرِفُوا حَقَّهُ وَيَسْتَنْبِطُوا أَهْلَهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ^(١) الْعِلْمُ

= انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٧/ ٢٧٢، وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٣،
البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٤، البيان المغرب ١/ ٨٠، الوزاء والكتاب ٣٥، تاريخ
بغداد ١٤/ ١٢٨، مروج الذهب ٢/ ٢٢٨،

(١) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبو الحسن الهاشمي
قاضي الأمة وفارس الإسلام جاهد في الله حق جهاده، ونهض بأغياء العلم
والعمل. استشهد في سابع عشر رمضان من عام أربعين وسنه ستون سنة.

انظر المزيد في: أسد الغابة ٤/ ٩١، الإصابة ٢/ ٥٠١، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣،
تاريخ الخلفاء ١٦٦، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢، =

خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. الْعِلْمُ حَاجِمٌ
وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. مَاتَ حُزَانُ الْأَمْوَالِ وَبَقِيَ حُزَانُ الْعِلْمِ.
أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ. وَأَشْخَاصُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ.

وَرُبَّمَا امْتَنَعَ الْإِنْسَانُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ لِكِبَرِ سِنِهِ وَاسْتِحْيَائِهِ مِنْ
تَقْصِيرِهِ فِي صِغَرِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ فِي كِبَرِهِ. فَرَضِيَ بِالْجَهْلِ أَنْ يَكُونَ
مَوْسُومًا بِهِ وَآثَرُهُ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَصِيرَ مُبْتَدِئًا بِهِ. وَهَذَا مِنْ خَدَاعِ
الْجَهْلِ وَغُرُورِ الْكَسَلِ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَانَ فَضِيلَةً فَرَعْبَةُ ذَوِي
الْأَسْنَارِ فِيهِ أَوَّلَى وَالْإِبْتِدَاءُ بِالْفَضِيلَةِ وَلَئِنْ يَكُونَ شَيْخًا مُتَعَلِّمًا أَوَّلَى
مِنْ أَنْ يَكُونَ شَيْخًا جَاهِلًا.

وَرُبَّمَا امْتَنَعَ أَيْضًا مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ لِتَعَذُّرِ الْمَادَّةِ وَشَغْلِهِ اِكْتِسَابُهَا عَنْ
الْتِمَاسِ الْعِلْمِ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ أَعَذَّرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ
إِلَّا عِنْدَ ذِي شَرَّةٍ وَعَيْبٍ وَشَهْوَةٍ مُسْتَعْبِدَةٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ إِلَى الْعِلْمِ
حَظًّا مِنْ زَمَانِهِ فَلَيْسَ كُلُّ الزَّمَانِ زَمَانُ اِكْتِسَابٍ وَلَا بُدَّ لِلْمُكْتَسِبِ مِنْ
أَوْقَاتٍ اسْتِرَاحَةٍ وَأَيَّامٍ عُطْلَةٍ وَمَنْ صَرَفَ كُلَّ نَفْسِهِ إِلَى الْكَسْبِ حَتَّى
لَمْ يَتْرُكْ لَهَا فَرَاغًا إِلَى غَيْرِهِ فَبُهِوَ مِنْ عِبِيدِ الدُّنْيَا وَأَسْرَاءِ الْحِرْصِ.
وَرُبَّمَا مَنَعَهُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ مَا يَظُنُّهُ مِنْ صُعُوبَتِهِ وَبُعْدِ غَايَتِهِ

= شذرات الذهب ١/ ٤٩، طبقات الفقهاء ٤١، طبقات القراء لسان الجزرى
٥٤٦/١، طبقات القراء للذهبي ١/ ٣٠، العبر ١/ ٤٦، مروج الذهب ٢/ ٣٥٨،
النجوم الزاهرة ١/ ١١٩.

وَيَخْشَى مِنْ قَلْبِهِ ذَهْنَهُ وَبُعْدَ فِطْنَتِهِ وَهَذَا الظَّنُّ اعْتِدَارُ ذَوِي النُّقْصِ
وَخِيفَةُ أَهْلِ الْعَجْزِ لِأَنَّ الْإِخْبَارَ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ جَهْلٌ وَالْخَشْيَةُ قَبْلَ
الْاِبْتِلَاءِ عَجْزٌ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَكُونَنَّ لِلْأُمُورِ هُبُوبًا فَإِلَى خَيْبَةٍ بَصِيرُ الْهُبُوبِ
وَقِيلَ فِي مَنْشُورِ الْحَكَمِ كَمْ مِنْ ذَلِيلٍ أَعَزَّهُ عِلْمُهُ. وَمِنْ عَزِيزٍ
أَذَلَّهُ جَهْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لِبَنِيهِ: يَا بَنِيَّ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ
لَمْ تَتَّأَلَوْا بِهِ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا فَلَأَنْ يُذِمَّ الزَّمَانُ لَكُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ
أَنْ يُذِمَّ الزَّمَانُ بِكُمْ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ زَهَدَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ رَاغِبًا. وَلِمَنْ رَغِبَ فِيهِ أَنْ
يَكُونَ لَهُ طَالِبًا. وَلِمَنْ طَلَبَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ مُسْتَكْتِرًا. وَلِمَنْ اسْتَكْتَرَهُ مِنْهُ
أَنْ يَكُونَ بِهِ عَامِلًا. وَأَنْ لَا يَطْلُبَ لِتَرْكِهِ احْتِجَاجًا وَلَا لِلتَّقْصِيرِ
فِيهِ عُذْرًا. وَلَا يُسَوِّفُ نَفْسَهُ بِالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ وَيُؤْمِنُ بِهَا بِانْقِطَاعِ
الْأَشْغَالِ الْمُتَّصِلَةِ فَإِنَّ لِكُلِّ وَقْتٍ شُغْلًا.

وَلِكُلِّ زَمَانٍ عُذْرًا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

نَرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا

وَحَاجَةٌ مِنْ عَاشِرِ لَا تَنْقُصِي

تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ

وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

وَأَنْ يَقْصِدَ طَلَبَ الْعِلْمِ وَاثِقًا بِتَيْسِيرِ اللَّهِ قَاصِدًا وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى
بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ. وَهُوَ وَلِي التَّوْفِيقِ.

الفصل الثاني

فِيمَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ

يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ لَا يَنْتَبِذَ فِي طَلَبِهِ. وَيَنْتَهَزَ الْفُرْصَةَ بِهِ. فَرُبَّمَا شَحَّ الزَّمَانُ بِمَا سَمَحَ. وَضُنَّ بِمَا مَنَحَ. وَيَبْتَدِيءُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَوَّلِهِ. وَيَأْتِيهِ مِنْ مَدْخَلِهِ. وَلَا يَتَشَاغَلُ بِطَلَبِ مَا لَا يَضُرُّهُ جَهْلُهُ وَيَعْتَمِدُ ذَلِكَ مِنْ إِذْرَاكَ مَا لَا يَسْعُهُ جَهْلُهُ. فَإِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ فُضُولًا مُذْهِلَةً. وَشُدُورًا مُشْغِلَةً. إِنْ صَرَفَ إِلَيْهَا نَفْسَهُ قَطَعَتْهُ عَمَّا هُوَ أَهْمٌ مِنْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ^(١) الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فَخَذُّوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ بَتْرِكِ مَا لَا يَعْنِيكَ. تُدْرِكُ مَا يَغْنِيكَ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ مَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ إِشْعَارًا لِنَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فُضُولِ عِلْمِهِ وَإِعْذَارًا لَهَا فِي تَرْكِ

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس الهاشمي الإمام البحر عالم العصر ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل. توفي ابن عباس بالطائف سنة ٦٨ هـ.
انظر المزيد في: أسد الغابة ٣/ ٢٩٠، الإصابة ١/ ٣٢٢، تاريخ بغداد ١/ ١٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٤٠، خلاصة تذهيب الكمال ١٧٢، شذرات الذهب ١/ ٧٥، طبقات الفقهاء ٤٨، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٢٥، طبقات القراء للذهبي ١/ ٤١، العبر ١/ ٧٦، النجوم الزاهرة ١/ ١٨٢، نكت الهميان ١٨٠.

الاشْتِغَالِ بِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَطِيَّةُ النُّوْكَى وَعُذْرُ الْمُقْصِرِينَ. وَمَنْ أَخَذَ مِنَ
 الْعِلْمِ مَا تَسَهَّلَ وَتَرَكَ مِنْهُ مَا تَعَذَّرَ كَانَ كَالْقَنَاصِ إِذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ
 الصَّيْدَ تَرَكَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَّا خَائِبًا إِذْ لَيْسَ يَرَى الصَّيْدَ إِلَّا مُمْتَنِعًا
 كَذَلِكَ الْعِلْمُ كُلُّهُ صَعُبٌ عَلَى مَنْ جَهَلَهُ سَهْلٌ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ. لِأَنَّ
 مَعَانِيَهُ الَّتِي يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا مُسْتَوْدَعَةٌ فِي كَلَامٍ مُتَرْجِمٌ عَنْهَا وَكُلُّ
 كَلَامٍ مُسْتَعْمَلٌ فَهُوَ يَجْمَعُ لَفْظًا مَسْمُوعًا وَمَعْنَى مَفْهُومًا فَالْلَفْظُ كَلَامٌ
 يُعْقَلُ بِالسَّمْعِ وَالْمَعْنَى تَحْتَ اللَّفْظِ يُفْهَمُ بِالْقَلْبِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ
 الْحُكَمَاءِ: الْعُلُومُ مَطَالِعُهَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ. قَلْبٌ مُفَكِّرٌ. وَلِسَانٌ
 مُعْبِرٌ. وَبَيَانٌ مُصَوِّرٌ. فَمَنْ عَقَلَ الْكَلَامَ بِسَمْعِهِ فَهَمَّ مَعَانِيَهُ بِقَلْبِهِ
 وَمَنْ فَهَمَّ الْمَعَانِيَ سَقَطَ عَنْهُ كُلُّهُ اسْتِخْرَاجُهَا وَبَقِيَ عَلَيْهِ مُعَانَاةُ
 حِفْظِهَا وَاسْتِقْرَارُهَا لِأَنَّ الْمَعَانِيَ شَوَارِدُ تَضِلُّ بِالْإِغْفَالِ. وَالْعُلُومُ
 وَخَشْيَةٌ تَنْفِرُ بِالْإِرْسَالِ. فَإِذَا حَفِظَهَا بَعْدَ الْفَهْمِ أَنْسَتْ. وَإِذَا
 ذَكَرَهَا بَعْدَ الْأَنْسِ رَسَتْ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَنْ أَكْثَرَ الْمَذَاكِرَةَ
 بِالْعِلْمِ لَمْ يَنْسَ مَا عَلِمَ وَاسْتَفَادَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا لَمْ يُذَاكِرْ ذُو الْعُلُومِ يَعْلَمِهِ

وَلَمْ يَسْتَفِدْ عِلْمًا نَسِيَ مَا تَعَلَّمَ

فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكَتُبِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ

يَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَى

وَأِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِي مَا سَمِعَ كَشَفَ عَنِ السَّبَبِ الْمَانِعِ مِنْهَا
لِيَعْلَمَ الْعِلَّةَ فِي تَعَذُّرِ فَهْمِهَا فَإِنْ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ الْأَشْيَاءِ وَعِلَلِهَا
يُوصَلُ إِلَى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلَحَ مَا فَسَدَ وَلَيْسَ يَخْلُو السَّبَبُ الْمَانِعُ
مِنْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ الْمُتَرْجِمِ
عَنْهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي الْمَعْنَى الْمُسْتَوْدَعِ فِيهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ
لِعِلَّةٍ فَشَى السَّامِعِ الْمُسْتَخْرِجِ فَإِنْ كَانَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا
لِعِلَّةٍ فِي الْكَلَامِ الْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ.

أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ لِقِصْرِ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى فَيُصِيرُ تَقْصِيرُ اللَّفْظِ
عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذَلِكَ الْمَعْنَى وَهَذَا يَكُونُ مِنْ أَحَدٍ
وَجْهَيْنِ. إِمَّا مِنْ حَصْرِ الْمُتَكَلِّمِ وَعَيْهِ. وَإِمَّا مِنْ بِلَادَتِهِ وَقَلَّةِ مَهْمِهِ.
الْحَالُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ لَزِيَادَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى فَتَقْصِيرُ
الزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ الْمُقْصُودِ مِنْهُ وَهَذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ أَحَدٍ
وَجْهَيْنِ إِمَّا مِنْ هَذَرِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِكْثَارِهِ وَإِمَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ.
وَالْحَالُ الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ لِمَوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ
فَإِذَا لَمْ يَعْرِفَهَا السَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا تَقْصِيرُ اللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنْ الْأَسْبَابِ الْخَاصَةِ دُونَ الْعَامَةِ
لَأَنَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ الْكَلَامِ وَإِنَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ.
فَإِنْ عَدَلْتَ عَنِ الْكَلَامِ الْمُقْصَرِّ إِلَى الْكَلَامِ الْمُسْتَوْفَى وَعَنِ الزَّائِدِ إِلَى

الكَافِي أَرَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكْلَفٍ مَا يَكْدُ خَاطِرَكَ. وَإِنْ أَقَمْتَ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ إِمَّا لِمُضْرُورَةٍ دَعَتْكَ إِلَيْهِ عِنْدَ إِعْوَازٍ غَيْرِهِ أَوْ لِحِمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرٍ فَهَمِّهِ فَانْظُرْ فِي سَبَبِ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصِيرِ. فَإِنْ كَانَ التَّقْصِيرُ لِحِصْرٍ وَالزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهَّلْ عَلَيْكَ اسْتِخْرَاجَ الْمَعْنَى بِهِ لَأَنَّ مَا لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَحْضُولٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُخْتَلُ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنَ الصَّحِيحِ وَفِي الْأَكْثَرِ عَلَى الْأَقْلُ دَلِيلٌ. وَإِنْ كَانَتْ زِيَادَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى لِسُوءِ ظَنِّ الْمُتَكَلِّمِ بِفَهْمِ السَّامِعِ كَانَ اسْتِخْرَاجُهُ أَسْهَلَ. وَإِنْ كَانَ تَقْصِيرُ اللَّفْظِ عَنِ الْمَعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ الْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ أَصْعَبُ الْأُمُورِ خَالًا وَابْعَدَهَا اسْتِخْرَاجًا. لَأَنَّ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ مَكَلِّمُكَ فَأَنْتَ مِنْ فَهْمِهِ أَبْعَدُ. إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِإِشَارَتِهِ عَلَى اسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَاسْتِخْرَاجِ مَا قَصَرَ فِيهِ فَتَكُونَ فَضِيلَةً الْإِسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ التَّقَدُّمِ لَهُ. فَهَذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْكَلَامِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَأَمَّا الْمَانِعُ مِنَ حِفْظِهِ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ فَهُوَ النِّسْيَانُ الْحَادِثُ عَنْ غَفْلَةِ التَّقْصِيرِ وَإِهْمَالِ التَّوَانِي. فَيَنْبَغِي لِمَنْ بُلِيَ بِهِ أَنْ يَسْتَدْرِكَ تَقْصِيرَهُ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ وَيُوقِظَ غَفْلَتَهُ بِإِدَامَةِ النَّظَرِ. فَقَدْ قِيلَ لَا يُدْرِكُ الْعِلْمُ مَنْ لَا يُطِيلُ دَرَسَهُ. وَيَكْدُ نَفْسُهُ. وَكَثْرَةُ الدَّرْسِ كَدٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يَرَى الْعِلْمَ مَغْنَمًا. وَالْجَهَالَةَ مَغْرَمًا. فَيَحْتَمِلُ تَعَبَ الدَّرْسِ لِيُدْرِكَ رَاحَةَ الْعِلْمِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَعْرَةَ الْجَهْلِ. فَإِنْ نَبَلَ

الْعَظِيم بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَعَلَى قَدَرِ الرُّغْبَةِ تَكُونُ الْمَطَالِبُ وَيَحْسَبُ
الرَّاحَةَ يَكُونُ التَّعَبُ. وَقَدْ قِيلَ طَلَبُ الرَّاحَةِ قِلَّةُ الاسْتِرَاحَةِ.
وَرُبَّمَا اسْتَثْقَلَ الْمُتَعَلِّمُ الدَّرْسَ وَالْحِفْظَ وَاتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ الْمَعَانِي عَلَى
الرُّجُوعِ إِلَى الْكُتُبِ وَالْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ
أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةٌ بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ الْامْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُغْبِهُ الثَّقَةُ
إِلَّا خَجَلًا وَالتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا. وَهَذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ
أَشْيَاءَ. إِمَّا الضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ الْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولِ الْأَمَلِ فِي
التَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادِ الرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ
أَنَّ الضُّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ الطُّوْلَ الْأَمَلِ مَعْرُورٌ وَأَنَّ الْفَاسِدَ الرَّأْيِ
مُصَابٌ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ فَشَى أَمْثَالَهَا حَزَفَ فِي قَلْبِكَ. خَيْرٌ مِنْ
أَلْفِ فَشَى كُتِبِكَ.
وَقَالَ الشَّافِعِيُّ^(١):

(١) هو الإمام الشافعي رضي الله عنه أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس
ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن
عبد مناف القرشي المطلبى المكي نزيل مصر، إمام الأئمة وقُدوة الأمة. ولد بغزة سنة
١٥٠ هـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين. روى عن عمه محمد بن علي وأبي أسامة
وسعيد بن سالم القداح وابن عيينة ومالك وابن علية وابن أبي فديك وخلق. وعنه
أبناه أبو عثمان محمد والإمام أحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو عبيد القاسم وأبو الطاهر
ابن السرح والمزني وحرملة بن يحيى والحسن بن محمد الزعفراني والربيع بن
سليمان المرادي والربيع بن سليمان الجيزي وأبو الوليد المكي وأبو يعقوب البويطي
ويونس بن عبد الأعلى وخلق كثير.

عَلِمَ مَعِيَ حَيْثُمَا يَمُوتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وَعَائِلُهُ لَا بَطْنٌ صُنْدُوقٌ^(١)

= وقال أحمد: إن الله تعالى يَقْبِضُ للناس في رأس كل مائة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفي رأس المائتين الشافعي. وقال إسماعيل بن يحيى سمعت الشافعي يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر. وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي يفتي وله خمس عشرة سنة وكان يحيى الليل إلى أن مات.

وقال أبو ثور: كتب عبد الرحمن بن مهدى إلى الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع قول الأحناف فيه حجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب "الرسالة". قال ابن مهدى: ما أصلى صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي فيها. وقال هارون بن سعيد الأيلي: لو أن الشافعي ناظر على هذا العمود الذي هو من حجارة أنه من خشب لغلب، لاقتداره على المناظرة. وكان الحميدى يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعي. مات سنة ٢٠٤ هـ

انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٦/ ٣٦٧، الانس الجليل ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٥، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦١، ترتيب المدارك ٢/ ٣٨٢، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٤٤، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣، حلية الأولياء ٩/ ٦٣، خلاصة تهذيب الكمال ٢٧٧، الديباج المذهب ٢٢٧، الرسالة المستطرفة ١٧، طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٩٥، طبقات المفسرين للداودي ٣/ ٩٨، طبقات النحاة لابن قاضي شعبة ١/ ٢١، طبقات ابن هداية الله ١١، العبر ١/ ٣٤٣، الفهرست ٢٠٩، اللباب ٢/ ٥، مرآة الحنان ٢/ ١٣، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، الوافي بالوفيات ١٧١/ ٢، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧.

(١) ينفعني في أدب الدنيا والدين ومنهاج اليقين يتبعني. يمت: قصدت =

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِيَ
أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

وَرُبَّمَا اعْتَنَى الْمُتَعَلِّمُ بِالْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ
حَافِظًا لَلْأَقَاظِ الْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا
تَضْمَنُهَا. يَرَوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ خُبْرَةٍ. وَرُبَّمَا اعْتَمَدَ عَلَى
حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ الْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا اسْتَقَرَّ فِيهِ
ذِهْنِهِ. وَهَذَا خَطَأٌ مِنْهُ لَأَنَّ الشَّكْلَ مُعْتَرِضٌ وَالنَّسْيَانُ طَارِقٌ.
وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ هَذِهِ الْأَدَابَ نَوَافِرٌ تَنْدُ عَنْ عَقْلِ الْأَذْهَانِ
فَاجْعَلُوا الْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاءً وَالْأَقْلَامَ لَهَا رِعَاءً.

وَأَمَّا الشُّرُوطُ الَّتِي يَتَوَقَّفُ بِهَا عِلْمُ الطَّالِبِ. وَيَنْتَهِي مَعَهَا
كَمَالُ الرَّغْبِ. مَعَ مَا يَلَاخِظُ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ وَيُمَدُّ بِهِ مِنَ الْمَعُونَةِ
فَتَسَعَةُ شُرُوطٍ.

أَحَدُهَا: الْعَقْلُ الَّذِي يُدْرِكُ بِهِ حَقَائِقَ الْأُمُورِ.
وَالثَّانِي: الْفِطْنَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا غَوَامِضَ الْعُلُومِ.
وَالثَّلَاثُ: الذِّكَاؤُ الَّذِي يَسْتَقِرُّ بِهِ حِفْظُ مَا تَصَوَّرَهُ وَفَهْمُ مَا عَلِمَهُ.
وَالرَّابِعُ: الشَّهْوَةُ الَّتِي يَدُومُ بِهَا الطَّلِبُ وَلَا يُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَلَلُ.
وَالْخَامِسُ: الْأَكْتِفَاءُ بِمَادَّةٍ تَغْنِيهِ عَنْ كُلِّ الطَّلِبِ.
وَالسَّادِسُ: الْفُرَاغُ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ التَّوَقُّفُ وَيَحْصُلُ بِهِ الْإِسْتِكْثَارُ.

= المقصود أنه يحفظ العلم في ذهنه وقلبه ولا يحتاج إلى استخدام الكتب.

وَالسَّابِعُ: عَدَمُ الْقَوَاطِعِ الْمَذْهَلَةِ مِنْ هُمُومٍ وَأَمْرَاضٍ.
وَالثَّامِنُ: طُولُ الْعُمُرِ وَاتِّسَاعُ الْمُدَّةِ لِيَنْتَهِيَ بِالِاسْتِكْثَارِ إِلَى
مَرَاتِبِ الْكَمَالِ.
وَالتَّاسِعُ: الظَّفَرُ بِعَالَمٍ سَمَحَ بِعِلْمِهِ مُتَانٌّ فِي تَعْلِيمِهِ. فَإِذَا
اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الشُّرُوطَ التَّسْعَةَ فَهُوَ أَسْعَدُ طَالِبٍ وَأَنْجَحُ مُتَعَلِّمٍ.
فَاحْفَظْ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الفصل الثالث

فى أوائل العلم ومداخله

وَأَعْلَمَ أَنَّ لِلْعُلُومِ أَوَائِلَ تُؤَدِّي إِلَى أَوَاخِرِهَا وَمَدَاخِلَ تُفْضِي إِلَى حَقَائِقِهَا. فَلْيَبْتَدِءْ طَالِبُ الْعِلْمِ بِأَوَائِلِهَا لِيَنْتَهِيَ إِلَى أَوَاخِرِهَا وَبِمَدَاخِلِهَا لِيُقْضَى إِلَى حَقَائِقِهَا. وَلَا يَطْلُبِ الْآخِرَ قَبْلَ الْأَوَّلِ. وَلَا الْحَقِيقَةَ قَبْلَ الْمُدْخِلِ. فَلَا يُدْرِكُ الْآخِرَ وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ لَأَنَّ الْبِنَاءَ عَلَى غَيْرِ أُسٍّ لَا يُبْنَى. وَالثَّمَرُ مِنْ غَيْرِ غَرْسٍ لَا يَجْنَى.

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

obeikandi.com

الفصل الرابع

فَبِمَا يَجِبُ عَلَى الْمُعَلِّمِ وَفِي وَجْهِ الصَّوَابِ فِي تَعْلِيمِ
الْعُلُومِ وَطَرِيقِ إِفَادَتِهِ

إِعْلَمَ أَنَّ تَلْقِينَ الْعُلُومِ لِلْمُتَعَلِّمِينَ إِنَّمَا يَكُونُ مُفِيدًا إِذَا كَانَ عَلَى
التَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلِيلًا قَلِيلًا يُلْقَى عَلَيْهِ أَوَّلًا مَسَائِلَ مِنْ كُلِّ
بَابٍ مِنَ الْفَنِّ هِيَ أَصُولُ ذَلِكَ الْبَابِ وَيُقَرَّبُ لَهُ فِي شَرْحِهَا عَلَى
سَبِيلِ الإِجْمَالِ وَيُرَاعَى فِي ذَلِكَ قُوَّةُ عَقْلِهِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِقَبُولِ مَا
يَرُدُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْتَهَى إِلَى آخِرِ الْفَنِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ مَلَكَةُ
فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَضَعِيفَةٌ وَغَايَتُهَا أَنَّهَا هَيَأَتُهُ لِفَهْمِ
الْفَنِّ وَتَحْصِيلِ مَسَائِلِهِ. ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى الْفَنِّ ثَانِيَةً فَيَرْفَعُهُ فِي
التَّلْقِينَ عَنْ تِلْكَ الرَّتْبَةِ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَيَسْتَوْفِي الشَّرْحَ الْبَيَانِي
وَيَخْرُجُ عَنِ الإِجْمَالِ وَيَذْكُرُ لَهُ مَا هُنَاكَ مِنَ الْخِلَافِ وَوَجْهِهِ إِلَى
أَنْ يَنْتَهَى إِلَى آخِرِ الْفَنِّ فَتَجُودُ مَلَكَتُهُ. ثُمَّ يَرْجِعُ بِهِ وَقَدْ شَيْءًا
فَلَا يَتْرُكُ عَوِيضًا وَلَا مُهْمًا وَلَا مُغْلَقًا إِلَّا وَضَحَهُ وَفَتَحَ لَهُ مُقْلَهُ
فَيَخْلُصُ مِنَ الْفَنِّ وَقَدْ اسْتَوَى عَلَى مَلَكَتِهِ. هَذَا وَجْهُ التَّعْلِيمِ الْمُبِيدِ
وَهُوَ كَمَا رَأَيْتَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي ثَلَاثِ تَكَرَّراتٍ وَقَدْ يَحْصُلُ
لِلْبَعْضِ فِي أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُخْلَقُ لَهُ وَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِ. وَقَدْ

شَاهِدَنَا كَثِيرًا مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ الَّذِي اذْرَكْنَا يَجْهَلُونَ طُرُقَ
التَّعْلِيمِ وَإِفَادَتِهِ وَيُخْصِرُونَ الْمُتَعَلِّمَ فِي أَوَّلِ تَعْلِيمِهِ الْمَسَائِلَ الْمُثْقَلَةَ
مِنَ الْعِلْمِ وَيُطَالِبُونَهُ بِإِخْضَارِ ذَهْنِهِ فِي حُلِّهَا وَيَحْسِبُونَ ذَلِكَ مَرَانَةً
عَلَى التَّعْلِيمِ وَصَوَابًا فِيهِ وَيُكَلِّفُونَهُ وَعَى ذَلِكَ وَتَحْصِيلَهُ وَيَخْلُطُونَ
عَلَيْهِ لِفَهْمِهَا. فَإِنْ قَبُولُ الْعِلْمِ وَالِاسْتِعْدَادَاتِ لِفَهْمِهِ تَنْشَأُ تَدْرِجًا
وَيَكُونُ الْمُتَعَلِّمُ أَوَّلَ الْأَمْرِ عَاجِزًا عَنِ الْفَهْمِ بِالْجُمْلَةِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
وَعَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ وَالْإِجْمَالِ وَبِالْأَمْثَالِ الْجَسُيَّةِ ثُمَّ لَا يَزَالُ
الِاسْتِعْدَادُ فِيهِ يَتَدَرَّجُ قَلِيلًا قَلِيلًا بِمُخَالَفَةِ مَسَائِلِ ذَلِكَ الْفَنِّ
وَتَكَرَّرِهَا عَلَيْهِ وَالِانْتِقَالَ فِيهَا مِنَ التَّقْرِيبِ إِلَى الْإِسْتِيعَابِ الَّذِي
فَوْقَهُ حَتَّى تَتِمَّ الْمَلَكََةُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ ثُمَّ فِي التَّحْصِيلِ وَيُحِيطُ هُوَ
بِمَسَائِلِ الْفَنِّ وَإِذَا أَلْقِيَتْ عَلَيْهِ الْغَابَاتُ فِي الْبِدَآئِ وَهُوَ حِينئِذٍ
عَاجِزٌ عَنِ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَبَعِيدٌ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لَهُ كُلُّ ذَهْنُهُ عَنْهَا
وَحَسِبَ ذَلِكَ مِنْ صُعُوبَةِ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ فَتَكَاسَلَ عَنْهُ وَانْخَرَفَ
عَنْ قَبُولِهِ وَتَعَادَى فِي هِجْرَاتِهِ وَإِنَّمَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ سُوءِ التَّعْلِيمِ.
وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِ أَنْ يَزِيدَ مُتَعَلِّمَهُ عَلَى فَهْمِ كِتَابَةِ الَّذِي أَكَبَ
عَلَى التَّعْلَمِ مِنْهُ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ وَعَلَى نِسْبَةِ قَبُولِهِ لِلتَّعْلِيمِ مُبْتَدِئًا
كَانَ أَوْ مُنْتَهِيًا وَلَا يَخْلُطُ مَسَائِلَ الْكِتَابِ بِغَيْرِهَا حَتَّى بَعِيَهُ مِنْ
أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَيُحْصَلَ أَغْرَاضُهُ وَيَسْتَوِلِي مِنْهُ عَلَى مَلَكَتِهَا يَنْقُذُ

فِي غَيْرِهِ وَلَأنَّ الْمُتَعَلِّمَ إِذَا حَصَلَ مَلَكَهَ مَا فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ اسْتَعَدَّ
 بِهَا لِقَبُولِ مَا بَقِيَ وَحَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ وَالنَّهْوضِ
 إِلَى مَا فَوْقَ حَتَّى يَسْتَوِيَ عَلَى غَايَاتِ الْعِلْمِ. وَإِذَا خُلِطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ
 عَجَزَ عَنِ الْفَهْمِ وَأَدْرَكَهُ الْكَلَالُ وَأَنْطَمَسَ فِكْرُهُ وَبَيَّسَ مِنَ التَّخْصِيلِ
 وَهَجَرَ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ. وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ
 لَا يُطَوَّلَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ فِي الْفَنِّ الْوَاحِدِ بِتَفْرِيقِ الْمَجَالِسِ وَتَقْطِيعِ
 مَا بَيْنَهَا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إِلَى النَّسْيَانِ وَانْقِطَاعِ مَسَائِلِ الْفَنِّ بَعْضُهَا
 مِنْ بَعْضٍ فَيَنْسَرُ حُصُولُ الْمَلَكََةِ بِتَفْرِيقِهَا وَإِذَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْعِلْمِ
 وَأَوَاخِرُهُ حَاضِرَةً عِنْدَ الْفِكْرَةِ مُجَانِيَةً لِلنَّسْيَانِ كَانَتْ الْمَلَكََةُ أَيْسَرَ
 حُصُولًا وَأَحْكَمَ ارْتِبَاطًا وَأَقْرَبَ صَبْغَةً لِأَنَّ الْمَلَكَاتِ إِنَّمَا تَحْصُلُ
 بِتَتَابُعِ الْفِعْلِ وَتَكَرَّارِهِ وَإِذَا تُنَوِّسَى الْفِعْلُ تُنَوِّسَتِ الْمَلَكََةُ النَّاشِئَةُ
 عَنْهُ وَاللَّهُ عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. وَمِنَ الْمَذَاهِبِ الْحَمِيدَةِ
 وَالطَّرِيقِ الْوَاجِبَةِ فِي التَّعْلِيمِ أَنْ لَا يُخْلَطَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ عِلْمَانِ مَعًا
 فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَظْفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْسِيمِ الْبَالِ
 وَأَنْصِرَافِهِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى تَفْهَمِ الْآخَرِ فَيَسْتَغْلِقَانِ مَعًا
 وَيَسْتَضَعِبَانِ وَيَعُودُ مِنْهُمَا بِالْخَبِيَةِ. وَإِذَا تَفَرَّغَ الْفِكْرُ لِلتَّعْلِيمِ مَا هُوَ
 بِسَبِيلِهِ مُقْتَصِرًا عَلَيْهِ فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَجْدَرَ لِتَخْصِيلِهِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ.

(عن ابن خلدون)

obeikandi.com

الفصل الخامس

فى استعمال العلم

قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ : ثَمَرَةُ الْعِلْمِ أَنْ يُعْمَلَ بِهِ. وَثَمَرَةُ الْعَمَلِ أَنْ يُوجَرَ عَلَيْهِ. وَقِيلَ مِنْ تَمَامِ الْعِلْمِ اسْتِعْمَالُهُ. وَمِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ اسْتِقْلَالُهُ فَمَنْ اسْتَعْمَلَ عِلْمَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ رَشَادٍ. وَمَنْ اسْتَقْلَلَ عَمَلَهُ لَمْ يَقْصِرْ عَنْ مُرَادٍ. وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي^(١).

وَلَمْ يَحْمَدُوا مِنْ عَالَمٍ غَيْرِ عَامِلٍ.

خَلَقًا وَلَا مِنْ عَامِلٍ غَيْرِ عَالِمٍ

(١) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام الشاعر الأديب. أحد أمراء البيان. ولد فى جاسم "من قرى حوران بسورية" ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته، فأقام فى العراق ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بها سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م وكان مولده سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م كان أسمر طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتعة بسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطع فى شعره قوة وجزالة. واختلف فى التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري. له تصانيف منها "فحول الشعراء" و"ديوان الحماسة" و"مختار أشعار القبائل" وهو أصغر من ديوان الحماسة و"نقائض جرير والأخطل" و"الوحشيات" وهو ديوان الحماسة الصغرى و"ديوان شعره".

انظر المزيد فى! وفيات الأعيان ١/ ١٢١، نزهة الألباء ٤٥، معاهد التنصيص ٣٨١/١، تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٨، شذرات الذهب ٢/ ٧٢، الزريعة ١/ ٣١٤ - ٣١٥.

رَأَوْا طُرُقَاتِ الْعَجْزِ عُوجًا فَطِيعَةً

وَأَفْطَحُ عَجْزَ عِنْدَهُمْ عَجْزُ حَبَازِمٍ^(١)

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ مَنْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ.
وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ أَيْضًا النَّارُ لَا يَنْقُصُهَا مَا أَخَذَ مِنْهَا وَلَكِنْ
يُخَمِّدُهَا أَنْ لَا تَجِدَ حَطْبًا. كَذَلِكَ الْعِلْمُ لَا يُغْنِيهِ الْاِقْتِبَاسُ وَلَكِنْ
فَقَدْ الْحَامِلِينَ لَهُ سَبَبُ عَدَمِهِ: فَإِيَّاكَ وَالْبُخْلَ بِمَا تَعْلَمُ.

(١) ورد البيهقي في الديوان ٢/ ٢٥٩.

الفصل السادس

فيما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق

الجديرة بهم

أَمَّا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي بِهِمْ
الْبَقَى وَلَهُمْ الزَّمُ فَالتَّوَاضُّعُ وَمُجَانِبَةُ الْعُجْبِ. لِأَنَّ التَّوَاضُّعَ عَطُوفٌ
وَالْعُجْبُ مُنْفَرٌ وَهُوَ بِكُلِّ أَحَدٍ قَبِيحٌ وَبِالْعُلَمَاءِ أَقْبَحُ لِأَنَّ النَّاسَ بِهِمْ
يَقْتَدُونَ. وَكَثِيرًا مَا يَدْخُلُهُمُ الْإِعْجَابُ لِتَوْجُدِهِمْ بِفَضْلَةِ الْعِلْمِ وَلَوْ
أَنَّهُمْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظِيرِ وَعَمِلُوا بِمُوجِبِ الْعِلْمِ لَكَانَ التَّوَاضُّعُ بِهِمْ
أَوَّلِي وَمُجَانِبَةُ الْعُجْبِ بِهِمْ أُخْرَى لِأَنَّ الْعُجْبَ يَقْصُ يُنَافِي الْقُضْلَ
وَيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ فَلَا يَفِي مَا أَدْرَكُوهُ مِنْ
فَضْلَةِ الْعِلْمِ بِمَا لَحِقَهُمْ مِنْ نَقْصِ الْعُجْبِ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ^(١)

(١) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أبو حفص العدوي الفاروق وزير رسول الله
صلى الله عليه وسلم، ومن أيد الله به الإسلام، وفتح به الأمصار وهو الصديق المحدث
الملم، وهو الذي سنن للمحدثين التثبيت في النقل، وربما كان يتوقف في خبر الواحد
إذا ارتاب. استشهد أمير المؤمنين في أواخر ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين وعاش
نحوًا من ستين سنة.

انظر المزيد في: أمد الغاية ٤/ ١٤٥، الإصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨،
تذكرة الحفاظ ١/ ٥، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩، شذرات الذهب ١/ ٣٣،
طبقات الفقهاء ٣٨، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٩١، العبر ١/ ٢٧، مروج =

تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعَلَّمُونَ
وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ
عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ^(١) الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ أَشْبَارُ فَقَدْ نَالَ مِنْهُ
شَبْرًا شَمَخَ بِأَنْفِهِ وَظَنَّ أَنَّهُ نَالَهُ. وَمَنْ نَالَ الشَّيْبَرَ الثَّانِي صَغُرَتْ
إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَنْلَهُ. وَأَمَّا الشَّيْبَرُ الثَّالِثُ فَهَيْهَاتَ لَا يَنْالُهُ
أَحَدٌ أَبَدًا.

وَمَنْ أَوْضَحَ ذَلِكَ بَيَانًا اسْتِعَاذَةُ الْجَاحِظِ^(٢) فِي كِتَابِ الْبَيَانِ

= الذهب ٢ / ٣١٢، النجوم الزاهرة ١ / ٧٨.

(١) هو الشعبي عامر بن شراحيل أبو عمرو الكوفي. ولد لبيت مضت من خلافة
عمر على المشهور، وأدرك خمسمائة من الصحابة، وقال: ما كتبت سوداء في
بيضاء قط، ولا حدثني رجل بحديث فاحببت أن يعيده علي، ولا حدثني رجل
بحديث إلا حفظته. وقال أبو مخلد: ما رأيت أفقه من الشعبي. وقال عبد الملك
ابن عمير: مر ابن عمر على الشعبي وهو يحدث بالغازي فقال: لقد شهدت القوم
فلهو أحفظ لها وأعلم بها. مات سنة ١٠٣ هـ أو ١٠٤ هـ أو ١٠٧ هـ أو ١١٠ هـ
والله أعلم.

انظر المزيد في: تاريخ بغداد ١٢ / ٢٢٩، تذكرة الحفاظ ١ / ٧٩، تهذيب
التهذيب ٥ / ٦٥، حلية الأولياء ٤ / ٣١٠، خلاصة تهذيب الكمال ١٥٥، شذرات
الذهب ١ / ١٢٦، طبقات ابن سعد ٦ / ١٧١، طبقات الفقهاء ٨١، طبقات القراء
لابن الجزري ١ / ٣٥٠، العبر ١ / ١٢٧، اللباب ٢ / ٢١، النجوم الزاهرة ١ / ٢٥٣،
وفيات الأعيان ١ / ٢٤٤.

(٢) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء الليثى أبو عثمان الشهير
بالجاحظ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة مولده =

حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ
 فِتْنَةِ الْعَمَلِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّكْلِيفِ لَنَا لَا نُحْسِنُ كَمَا نَعُوذُ بِكَ
 مِنَ الْعُجْبِ بِمَا نُحْسِنُ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ السَّلَاطَةِ وَالْهَذَرِ كَمَا
 نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْيَعْيِ وَالْحَصْرِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ
 لَا تَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا تَعْلَمُ بِكَلَامٍ مَنْ يَعْلَمُ فَحَسْبُكَ جَهْلًا مِنْ عَقْلِكَ أَنْ

= سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م ووفاته بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م فليج في آخر عمره.
 وكان مشوه الخلقه. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت
 عليه. له تصانيف كثيرة. منها "الحيوان" أربعة مجلدات و"البيان والتبيين"
 و"سحر البيان" و"التاج" ويسمى "أخلاق الملوك" و"البخلاء" و"المحاضن
 والأضداد" و"التبصير بالتجارة" رسالة نشرت في مجلة المجتمع العلمي العربي.
 و"مجموع رسائل" اشتمل على أربع هي: العاد والمعاش وكتام السر وحفظ
 اللسان، والجد والهزل والحسد. والعداوة. وله "ذم القواد" رسالة صغيرة و"تنبيه
 المسوك" في ٤٤٠ ورقة و"الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير" و"فضائل
 الأتراك" و"العرفاء والفراصة" و"الربيع والخريف" و"الحنين إلى الأوطان"
 رسالة و"النبي والمتنبي" و"مسائل القرآن" و"العبر والاعتبار في النظر في
 معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع" و"فصلة المعتزلة" و"صياغة الكلام"
 و"الأصنام" و"كتاب المعلمين" و"الجواري" و"النساء" و"البلدان" و"جمهرة
 الملوك" و"كتاب المغنين" و"الاستبداد والمشاورة في الحرب".

انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٦/ ٥٦ - ٨٠، الوفيات ١/ ٣٨٨، أمراء البيان
 ٣١١ - ٤٨٧، آداب اللغة ٢/ ١٦٧، لسان الميزان ٤/ ٣٥٥، أمالي المرتضى
 ١٣٨/١، نزعة الألبا ٢٥٤.

تَنْطِقَ بِمَا لَا تَفْهَمُ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ زُرَّارَةُ بْنُ زَيْدٌ^(١) حَيْثُ يَقُولُ:

إِذَا مَا انْتَهَى عِلْمِي تَنَاهَيْتُ عَنْدَهُ
أَطَالَ فَأَمْلَى أَوْ تَنَاهَى فَأَقْصَرَا
وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ فَعِلُّهُ
كَفَى الْفِعْلُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مِنْ فَضْلِ عِلْمِكَ اسْتِقْلَالُكَ لِعِلْمِكَ وَمِنْ
كَمَالِ عَقْلِكَ اسْتَظْهَارُكَ عَلَى عَقْلِكَ. وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ أَنْ يَجْهَلَ
مِنْ نَفْسِهِ مَبْلَغَ عِلْمِهَا وَلَا يَتَجَاوَزَ بِهَا قَدْرَ حَقِّهَا وَلَا أَنْ يَكُونَ بِهَا
مُقْصِرًا فَيُذْعِنَ بِالْإِنْقِيَادِ أَوَّلَى مِنْ أَنْ يَكُونَ بِهَا مُجَاوِزًا فَيَكْفُفَ عَنِ
الِازْدِيَادِ لِأَنَّ مَنْ جَهِلَ حَالَ نَفْسِهِ كَانَ لِغَيْرِهَا أَجْهَلُ. وَقَدْ قَسَمَ
الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ أَحْوَالَ النَّاسِ فِيمَا عِلْمُوهُ أَوْ جَهْلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ
مُتَقَابِلَةٍ لَا يَخْلُو الْإِنْسَانُ مِنْهَا. فَقَالَ الرَّجَالُ أَرْبَعَةُ رَجُلٌ يَدْرِي
وَيَدْرِي أَنَّهُ يَدْرِي فَذَلِكَ عَالِمٌ فَاسْأَلُوهُ. وَرَجُلٌ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ
يَدْرِي فَذَلِكَ نَاسٌ فَذَكَّرُوهُ. وَرَجُلٌ لَا يَدْرِي وَيَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي
فَذَلِكَ مُسْتَرْشِدٌ فَارْشَدُوهُ وَرَجُلٌ لَا يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي
فَذَلِكَ جَاهِلٌ فَارْضُوهُ وَأَنْشَدَ أَبُو الْقَاسِمِ الْأَمْدِيُّ^(٢):

(١) وردت الأبيات في الأغاني.

(٢) ورد له ذكر وترجمة في إرشاد الأريب وبغية الوعاة وإنباه الرواة

إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي وَلَمْ تَكُ بِالَّذِي

يُسَائِلُ مَنْ يَدْرِي فَكَيْفَ إِذَنْ تَدْرِي

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

obeikandi.com

البَابُ الْأَوَّلُ وَفِيهِ عَشْرَةُ فُصُولٍ الفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي أَرْكَانِ الْكِتَابَةِ

إِعْلَمْ أَنَّ أَرْكَانَ الْكِتَابَةِ الَّتِي لَا يَبْدُ مِنْ مُرَاعَاتِهَا فِي كُلِّ كِتَابٍ بَلَاغِيٌّ ذِي شَأْنٍ ثَلَاثَةٌ.

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَطْلَعُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ حِدَّةٌ وَرَشَاقَةٌ فَإِنَّ الْكَاتِبَ مَنْ أَجَادَ الْمَطْلِعَ وَالْمَقْطَعَ. أَوْ يَكُونَ مَبْنِيًّا عَلَى مَقْصِدِ الْكِتَابِ وَلِهَذَا بَابٌ يُسَمَّى بَابَ الْمَبَادِيءِ وَالْإِفْتِتَاحَاتِ^(١) فَلْيُحَذَّ حَذْوُهُ. وَهَذَا الرُّكْنُ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

الرُّكْنُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ خُرُوجُ الْكَاتِبِ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى يَرَابِطَةً لِيَتَكُونَ رِقَابُ الْمَعَانِي آخِذًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَلَا تَكُونَ مُقْتَضِبَةً وَلِذَلِكَ بَابٌ مُفْرَدٌ أَيْضًا يُسَمَّى بَابَ التَّخْلِصِ وَالْإِقْتِضَابِ^(٢). وَهَذَا الرُّكْنُ أَيْضًا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُ الْكِتَابِ غَيْرَ مُخْلَقَةٍ بِكَثْرَةٍ

(١) انظر الفصل الثامن من هذا الباب.

(٢) انظر الفصل التاسع من هذا الباب.

الِاسْتِعْمَالِ. وَلَا أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ الْمُسْتَعْمَلَةُ مَسْبُوكَةً سَبْكَاً
غَرِيباً يَظُنُّ السَّامِعُ أَنَّهَا غَيْرُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَهِيَ مِمَّا فِي
أَيْدِي النَّاسِ. وَهَنَّاكَ مُعْتَرِكُ الْقَضَاخَةِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ الْخَوَاطِرُ
بَرَاعَتِهَا وَالْأَقْلَامُ شَجَاعَتِهَا كَمَا قَالَ الْبُحْتَرِيُّ^(١):

بِالْفَلْظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بَعْدِهِ

عَنَا وَيَتَّبَعْدُ نَيْلُهُ فِي قُرْبِهِ

وَهَذَا الْمَوْضِعُ بَعِيدُ الْمَنَالِ كَثِيرُ الْإِشْكَالِ يَحْتَاجُ إِلَى لُطْفِ ذَوْقٍ
وَشَهَامَةِ خَاطِرٍ وَهُوَ شَبِيهُ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ
وَلَا خَارِجَ الْعَالَمِ. فَلَفْظُهُ هُوَ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ وَلَيْسَ بِالَّذِي يُسْتَعْمَلُ
أَيُّ إِنَّ مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِهِ هِيَ الْمُسْتَعْمَلَةُ الْمَأْلُوفَةُ وَلَكِنْ سَبْكَهُ وَتَرْكِيبُهُ

(١) هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عباد البحتري، شاعر كبير يقال
لشعره "سلاسل الذهب" وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي
وأبو تمام والبحتري، قيل لأبي العلاء المعري أى الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي
وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري ولد بمنبج "بين حلب والفرات" سنة
٢٠٦ هـ / ٨٢١ م ورحل إلى العراق فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل
العباسي ثم عاد إلى الشام وتوفي بمنبج سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م له "ديوان شعر"
وكتاب "أحماسة" على مثال حماسة أبي تمام وللأمدى "الموازنة بين أبي تمام
والبحتري".

انظر المزيدي في: وفيات الأعيان ٢٠ / ١٧٥، معاهد التنقيص ١ / ٢٣٤،
الشريشي ١ / ٣٦، تاريخ بغداد ١٣ / ٤٤٦، مفتاح السعادة ١ / ١٩٣، المنتظم
١١ / ٦، العرب والروم ٣٥٢.

هُوَ الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ. وَإِذَا سَمَوْتَ أَيُّهَا الْكَاتِبُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ
وَأَسْتَطَعْتُمْ طَعَمَ هَذَا الْكَلَامِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ عَلِمْتُمْ حِينَئِذٍ أَنَّهُ كَالرُّوحِ
السَّائِكَةِ فِي بَدَنِكَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥]. وَلَيْسَ كُلُّ خَاطِرٍ بَرَّاقٍ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ
ذَلِكَ ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة
الحديد: الآية ٢٨]. وَمَعَ هَذَا فَلَا تَظُنُّ أَيُّهَا النَّازِرُ فِي كِتَابِي
أَنِّي أَرَدْتُ بِهَذَا الْقَوْلِ إِهْمَالَ جَانِبِ الْمَعْنَى بِحَيْثُ يُؤْتَى بِاللَّفْظِ
الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْحُسْنِ وَالْمَلَاخَةِ وَلَا يَكُونُ تَحْتَهُ مِنَ الْمَعْنَى
مَا يُعَاثِلُهُ وَيُسَاوِيهِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ كَصُورَةِ حَسَنَةٍ بَدِيعَةٍ
فِي حُسْنِهَا إِلَّا أَنَّ صَاحِبَهَا بَلِيدٌ أَبْلَهُ. وَهَذَا الرُّكْنُ أَيْضًا يَشْتَرِكُ
فِيهِ الْكَاتِبُ وَالشَّاعِرُ.

(انتهى عن المثل الشائر ببعض تصرف)

obeikandi.com

الفصل الثاني فى أدوات الكتابة

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِيُّ^(١): إِنْ كَانَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِ
أَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ فَتَصَفَّحْ مِنْ رَسَائِلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ وَمِنْ
رَسَائِلِ الْمُتَأَخِّرِينَ مَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَمِنْ نَوَادِرِ الْكَلَامِ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ
الْأَشْعَارَ وَالْأَخْبَارَ وَالسَّيْرَ وَالْأَسْمَاءَ مَا يَتَسَّعُ بِهِ مَنْطِقُكَ وَيَطُولُ بِهِ
قَلَمُكَ. وَأَنْظُرْ فِي كُتُبِ الْمَقَامَاتِ وَالْخُطَبِ وَمُجَاوِبَةِ الْعَرَبِ فِي
حُرُوبِهِمْ وَأَمْثَالِ الْفُرْسِ وَرَسَائِلِهِمْ وَعَهْودِهِمْ وَسِيرِهِمْ وَوَقَائِعِهِمْ
وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَسِّطًا عِلْمَ النَّحْوِ وَالْغَرِيبِ
وَكُتُبِ السَّجَلَاتِ وَالْأَمَانَاتِ لِتَكُونَ مَاهِرًا تَنْتَزِعُ أَى الْقُرْآنِ فِي
مَوَاضِعِهَا وَاخْتِلَافِ الْأَمْثَالِ فِي أَمَاكِينِهَا وَقَرْضِ الشُّعْرُضِ الْجَيِّدِ
وَعِلْمِ الْعُرُوضِ فَإِنَّ تَضَمِينَ الْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْبَيْتِ الْغَائِبِ الْبَارِعِ

(١) هو إبراهيم بن محمد الشيباني أبو اليسر ويعرف بالرياضى الكاتب،
أديب أصله من بغداد، واستقر فى القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبنى الأغلب ثم
للفاطميين إلى أن توفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م وكان مولده سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م من
كتبه "سراج الهدى" فى معانى القرآن وإعرابه، و "مسند" فى الحديث و "قطب
الأدب: و "لفظ المرجان" فى الأدب.

انظر الزيد فى: شذرات الذهب ٢ / ٣٧٥.

مِمَّا يَزِينُ كِتَابَكَ مَا لَمْ تُخَاطِبْ خَلِيفَةً أَوْ مَلِكًا جَلِيلَ الْقَدْرِ فَإِنْ
اجْتَلَابَ الشُّعْرَ فِي كُتُبِ الْخُلَفَاءِ عَيْبٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ هُوَ
الْقَارِضُ لِلشُّعْرِ وَالصَّانِعُ لَهُ فَإِنْ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي أُبْهَتِهِ.

وَإِذَا احْتَجَجْتَ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمُلُوكِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْكَتَّابِ
وَالْخُطَبَاءِ وَالْأَدَبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ وَأَوْسَاطِ النَّاسِ وَسُوقَتِهِمْ فَخَاطِبٌ كُلًّا
عَلَى أُبْهَتِهِ وَجَلَالَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَارْتِفَاعِهِ وَفُطْنَتِهِ وَانْتِبَاهِهِ وَتَخْيِيرِ مَنْ
الْأَلْفَافِ أَرْحَجَهَا لَفْظًا وَأَجَزَلَهَا وَأَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَأَكْرَمَهَا حَسَبًا
وَأَلْبَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَأَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَإِنْ حَاوَلْتَ صُنْعَ رِسَالَةٍ
فَزِنِ اللَّفْظَةَ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ وَعَابِرِ
الْكَلِمَةِ بِمِيقَارِهَا إِذَا سَنَحْتَ فَإِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مُخْرِجُ
الْكَلَامِ فِيهِ إِذَا كَتَبْتَ أَنَا فَاعِلٌ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ تَكْتُبَ أَنَا أَفْعَلُ
وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ اسْتَفْعَلْتُ أَحْلَى مِنْ أَنْ تَكْتُبَ أَنَا أَفْعَلُ
وَمَوْضِعٌ آخَرُ يَكُونُ فِيهِ اسْتَفْعَلْتُ أَحْلَى مِنْ فَعَلْتُ. فَأَدِرِ الْكَلَامَ
عَلَى أَعْكَانِهِ وَقَلْبِهِ عَلَاضِي جَمِيعِ وَجْهِهِ فَأَيُّ لَفْظَةٍ رَأَيْتَهَا لَا ثِقَّةَ
بِالْمَكَانِ الَّذِي نَدَبْتَهَا إِلَيْهِ فَانْزِعْهَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَرَدْتَهَا لَهُ
وَأَوْقِعْهَا فِيهِ وَلَا تَجْعَلِ اللَّفْظَةَ قَلَقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا
فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَنْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي حَاوَلْتَ تَحْسِينَهُ وَأَفْسَدْتَ
الْمَكَانَ الَّذِي أَرَدْتَ إِصْلَاحَهُ. فَإِنْ وَضَعَ الْأَلْفَافُ فِي غَيْرِ أَمَاكِنِهَا
وَقَصَدَكَ بِهَا إِلَى غَيْرِ مَصَابِئِهَا إِنَّمَا هُوَ كَتَرَفِيعِ الثُّوبِ الَّذِي تُشَابِهُهُ

رَفَاعُهُ وَلَمْ تَتَقَارَبْ أَجْزَاؤُهُ وَخَرَجَ مِنْ حَدِّ الْجِدَّةِ وَتَغَيَّرَ حُسْنُهُ كَمَا
قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلْقِ

يُبِينُ لِلنَّاسِ أَنَّ الثُّوبَ مَرْفُوعٌ

كَذَلِكَ كُلَّمَا أَحْلَوَى الْكَلَامُ وَعَذَّبَ وَرَاقَ وَسَهَّلْتَ مَخَارِجَهُ
كَانَ أَسْهَلَ وَلَوْجًا فِي الْأَسْمَاعِ وَأَشَدَّ اتِّصَالًا بِالْقُلُوبِ وَأَخْفَ
عَلَى الْأَفْوَاهِ وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ مُتَرَجِّمًا بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ
شَرِيفٍ وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَعْنَى الْبَدِيعُ مُتَرَجِّمًا بِلَفْظٍ مُؤْنِقٍ شَرِيفٍ
وَمُعَايِرًا بِكَلَامٍ عَذَبٍ لَمْ يَسِمَهُ التَّكْلِيفُ بِمِيسَمِهِ وَلَمْ يُفْسِدْهُ التَّعْقِيدُ
بِاسْتِهْلَاكِهِ.

وَقَدْ رَأَيْتُهُمْ شَبَّهُوا الْمَعْنَى الْخَفِيَّ بِالرُّوحِ الْخَفِيِّ وَاللَّفْظَ الظَّاهِرَ
بِالْجُثْمَانِ الظَّاهِرِ وَإِذَا لَمْ يَنْهَضْ بِالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْجَزْلَ لَفْظُ شَرِيفٍ
جَزْلٌ لَمْ تَكُنِ الْعِبَارَةُ وَاضِحَةً وَلَا النِّظَامُ مُتَسِقًا وَتَضَاءَلَ الْمَعْنَى
الْحَسَنُ تَحْتَ اللَّفْظِ الْقَبِيحِ كَتَضَاوُلِ الْحُسْنَاءِ فِي الْأَطْمَارِ الرَّثِيَّةِ.
(انتهى ملخصاً عن العقد الفريد)

obeikandi.com

الفضل الثالث فى الصنعة اللفظية وهى قسمان القسم الأول فى اللفظة المفردة

إِغْلَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِى تَأْلِيفِهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ. الْأَوَّلُ مِنْهَا اخْتِيَارُ الْأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ. وَحُكْمُ ذَلِكَ حَكْمُ اللَّائِيءِ الْمُبَدَّدَةِ فَإِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وَتُنْتَقَى قَبْلَ النِّظْمِ. الثَّانِي نِظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اخْتِيَارِهَا فِى الْمَشَاكِلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ الْكَلَامُ قَلَقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ الْعِقْدِ الْمَنْظُومِ فِى اقْتِرَانِ كُلِّ لَوْلُؤَةٍ مِنْهُ بِاخْتِيَارِهَا الْمَشَاكِلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ الْكَلَامُ قَلَقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ الْعِقْدِ الْمَنْظُومِ فِى اقْتِرَانِ كُلِّ لَوْلُؤَةٍ مِنْهُ بِاخْتِيَارِهَا الْمَشَاكِلَةِ لَهَا. الثَّلَاثُ الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذَلِكَ حُكْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِى يُوَضَّعُ فِيهِ الْعِقْدُ الْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ إِكْلِيلًا عَلَى الرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِى الْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْقًا فِى الْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هَذِهِ الْعُنُقِ وَتَارَةً يُجْعَلُ شَنْقًا فِى الْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ الْحُسْنِ تَخْصُّهُ. فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَالشَّاعِرِ مِنَ الْعِنَايَةِ

بِهَا وَهِيَ الْأَصْلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ.
 فَالْأَوَّلُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ مِنَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ. فَالْأَوَّلُ
 وَالثَّانِي مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ هُمَا الْمُرَادُ بِالْفَصَاحَةِ. وَالثَّلَاثَةُ
 بِجُمْلَتِهَا هِيَ الْمُرَادُ بِالْبَلَاغَةِ. وَهَذَا الْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ
 الْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوِّغِ الْكَلَامِ مِنَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ فَكَيْفَ الْجُهَالُ الَّذِينَ
 لَمْ تَنْفَعْهُمْ رَائِحَتُهُ. وَمَنْ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللَّهُ فِطْرَةَ نَاصِعَةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا
 يَبْضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسْسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى أَسْرَارِ مَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنْ
 الْأَلْفَافِ فَيَضَعُهَا فِي مَوَاضِعِهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ لِلْأَلْفَافِ الْمَقْرَدَةِ خَصَائِصَ
 وَهَيْئَاتٍ تَنْصِفُ بِهَا وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ وَاسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا
 فَخَوَّلَفَ فِيهِ وَكَذَلِكَ اسْتَفْتَحَ الْآخَرُ شَيْئًا فَخَوَّلَفَ فِيهِ. وَلَوْ حَقَّقُوا
 النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السَّرِّ فِي إِنْصَافِ بَعْضِ الْأَلْفَافِ بِالْحَسَنِ وَبَعْضِهَا
 بِالْقُبْحِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى ذَلِكَ
 فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِي هَذَا الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ
 الْفَصَاحَةِ^(١) وَفِي الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ غَنًى عَنْ غَيْرِهِ. وَلَكِنْ
 لَا بُدَّ أَنْ نَذْكُرَ هَهُنَا تَفْصِيلًا لِمَا أَجْمَلْنَاهُ هُنَاكَ لِأَنَّا ذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ
 الْفَصْلِ أَنَّ الْأَلْفَافَ دَاخِلَةً فِي حَيْزِ الْأَصَوَاتِ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ
 مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَمَا اسْتَلَدَّهُ السَّمْعُ مِنْهَا فَهُوَ الْحَسَنُ وَمَا كَرِهَهُ

(١) انظر الفصل السابع من هذا الباب.

وَنَبَا عَنْهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ. وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ تِلْكَ الْخَصَائِصِ وَالْهَيْئَاتِ الَّتِي أوردَهَا عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي كُتُبِهِمْ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَذِيذًا فِي السَّمْعِ كَانَ حَسَنًا وَإِذَا كَانَ حَسَنًا دَخَلَتْ تِلْكَ الْخَصَائِصُ وَالْهَيْئَاتُ فِي ضَمْنِ حُسْنِهِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ الْجُهَالِ إِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ إِنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةُ حَسَنَةٌ وَهَذِهِ قَبِيحَةٌ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ كُلُّ الْأَلْفَافِ حَسَنٌ وَالْوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ إِلَّا حَسَنًا وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ إِلَى أَنْ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ لَفْظَةِ الْعُصْنِ وَلَفْظَةِ الْعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْمَدَامَةِ وَلَفْظَةِ الْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْمَدَامَةِ وَلَفْظَةِ الْإِسْفِنْطِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ السَّيْفِ وَلَفْظَةِ الْخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ الْأَسَدِ وَلَفْظَةِ الْفَدُوكَسِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَلَا يُجَازَبَ بِجَوَابٍ.

وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَاكَ أَوْصَافٌ أُخَرُ يَنْبَغِي أَنْ يُعَبَّهَ عَلَيْهَا. فَمِنْهَا أَنْ لَا تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَحْدَهَا وَحْدِيَّةً. وَقَدْ خَفِيَ الْوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَمَتِّعِينَ إِلَى صِنَاعَةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَظَنُّوهُ الْمُسْتَقْبَحَ مِنَ الْأَلْفَافِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلِ الْوَحْشِيُّ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَالْآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى اسْمِ الْوَحْشِ الَّذِي يَسْكُنُ الْقِفَارَ وَلَيْسَ بِأَنْيَسَ وَكَذَلِكَ الْأَلْفَافُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأْنُوسَةً الْإِسْتِعْمَالِ. وَلَيْسَ مِنْ شَرِّطِ الْوَحْشِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ الْإِنْسُ فَتَارَةً يَكُونُ حَسَنًا وَتَارَةً يَكُونُ قَبِيحًا. وَعَلَى هَذَا

فَإِنَّ أَحَدَ قِسْمِي الْوَحْشِيِّ وَهُوَ الْغَرِيبُ الْحَسَنُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ
النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ. وَأَمَّا الْقِسْمُ الْآخَرُ مِنَ الْوَحْشِيِّ الَّذِي هُوَ
قَبِيحٌ فَإِنَّ النَّاسَ فِي اسْتِقْبَاحِهِ سَوَاءٌ وَلَا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ
وَلَا قُرَوِيٌّ مُتَحَضِّرٌ. وَأَحْسَنُ الْأَلْفَافِ مَا كَانَ مَالُوفًا مُتَدَاوِلًا لِأَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ مَالُوفًا مُتَدَاوِلًا إِلَّا لِمَكَانٍ حُسْنِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي
بَابِ الْفَصَاحَةِ^(١). فَإِنَّ أَرْبَابَ الْحَخَّاطَةِ وَالشَّعْرَ تَنْظُرُوا إِلَى الْأَلْفَافِ
وَتَقْبَلُوهَا عَنْهَا ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَحْسَنِ مِنْهَا فَاسْتَعْمَلُوهَا وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ
وَهُوَ أَيْضًا يَتَفَاوَتْ فَنَشَى دَرَجَاتٍ حُسْنِهِ فَالْأَلْفَافُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً
أَقْسَامٍ قِسْمَانِ حَسَنَانِ وَقِسْمٍ قَبِيحٍ. فَالْقِسْمَانِ الْحَسَنَانِ أَحَدُهُمَا
مَا تَدَاوَلَّ اسْتِعْمَالُهُ الْأَوَّلُ وَالْآخَرُ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا
وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ. وَالْآخَرُ مَا تَدَاوَلَّ اسْتِعْمَالُهُ الْأَوَّلُ دُونَ
الْآخِرِ وَيَخْتَلِفُ فِي اسْتِعْمَالِهِ بِالنَّسَبِ إِلَى الزَّمَنِ وَأَهْلِهِ وَهَذَا هُوَ
الَّذِي لَا يُعَابُ اسْتِعْمَالُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ وَحْشِيًّا
وَهُوَ عِنْدُنَا وَحْشِيٌّ. وَقَدْ تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُ كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٌ
وَهِيَ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا غَرِيبُ الْقُرْآنِ. وَكَذَلِكَ تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ
النَّبَوِيُّ مِنْهُ شَيْئًا وَهُوَ الَّذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ غَرِيبُ الْحَدِيثِ.
وَلَا يَسْبِقُ وَهْمُكَ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ
غِلْظُ الطَّبَعِ وَفَجَاجَةُ الذَّهْنِ بِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ مِنَ الْأَلْفَافِ

(١) انظر الفصل السابع من هذا الباب.

كَذًا وَكَذًا فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ. بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ
الَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ هُوَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا. وَالِاسْتِعْمَالُ لَيْسَ
بِدَلِيلٍ عَلَى الْحُسْنِ فَإِنَّا نَحْنُ نَسْتَعْمِلُ الْآنَ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَيْسَ
بِحَسَنٍ وَإِنَّمَا نَسْتَعْمِلُهُ لِمُضْرُورَةٍ فَلَيْسَ اسْتِعْمَالُ الْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي
كُلِّ الْأَحْوَالِ. وَهَذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ بِغَيْرِ الْعَارِفِ بِمَسَالِكِهِ وَمَنْ لَمْ
يَعْرِفْ صِنَاعَةَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ وَمَا تَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ الْكُلْفَةِ فِي صَوْغِ
الْأَلْفَافِ وَاخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مُعْذَرٌ فِي أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ:

لَا يَعْرِفُ الشُّوقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ

وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِيهَا

وَمَعَ هَذَا كَذًا وَكَذًا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ قَوْلٌ فَاسِدٌ لَا يَصْدُرُ
إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ فَإِنْ اسْتَحْسَنَ الْأَلْفَافِ وَاسْتَقْبَحَهَا لَا يُؤْخَذُ بِالتَّقْلِيدِ
مِنَ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ لَهُ
خَصَائِصٌ وَهَيْئَاتٌ وَعَلَامَاتٌ إِذَا وَجِدْتَ عِلْمَ حُسْنِهِ مِنْ قُبْحِهِ
وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ. وَأَمَّا
الَّذِي تُقَلِّدُ الْعَرَبَ فِيهِ مِنَ الْأَفَافِ فَإِنَّمَا هُوَ الْإِسْتِشْهَادُ بِأَشْعَارِهَا
عَلَى مَا يُنْقَلُ مِنْ لُغَتِهَا وَالْأَخْذُ بِأَقْوَالِهَا فِي الْأَوَاضَاعِ النُّحْوِيَّةِ
فِي رَفْعِ الْفَاعِلِ وَنَصْبِ الْمَفْعُولِ وَجَرِّ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَجَزْمِ الشَّرْطِ
وَأَشْيَاهِ ذَلِكَ وَمَا عَدَاهُ فَلَا وَحُسْنُ الْأَلْفَافِ وَقُبْحُهَا لَيْسَ إِضَافِيًّا إِلَى

زَيْدٌ دُونَ عَمْرٍو أَوْ إِلَى عَمْرٍو دُونَ زَيْدٍ لِأَنَّهُ وَصَفَ دَوَوِيَّ لَا يَتَغَيَّرُ
بِالإِضَافَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ الْمُرْتَبَةِ مِثْلًا حَسَنَةً عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً
مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ فِي حُسْنِهَا. وَكَذَلِكَ
لَفْظَةُ الْبُعَاقِ فَإِنَّهَا قَبِيحَةٌ عِنْدَ النَّاسِ كَافَّةً مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَإِذَا
اسْتَعْمَلْتَهَا الْعَرَبُ لَا يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا مُخْرِجًا لَهَا عَنِ الْقُبْحِ
وَلَا يُلْتَفَتُ إِذْنٌ إِلَى اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ يُعَابُ مُسْتَعْمِلُهَا وَيُعْلَظُ لَهُ
النَّكِيرُ حَيْثُ اسْتَعْمَلَهَا.

فَلَا تَظُنْ أَنَّ الْوَحْشِيَّ مِنَ الْأَلْفَافِ مَا يَكْرَهُهُ سَمْعُكَ وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ
النُّطْقُ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ الْغَرِيبُ الَّذِي يَقِلُّ اسْتِعْمَالُهُ فَتَارَةً يَخْفُ عَلَى
سَمْعِكَ وَلَا تَجِدُ بِهِ كَرَاهَةً وَتَارَةً يَنْقُلُ عَلَى سَمْعِكَ وَتَجِدُ مِنْهُ
الْكَرَاهَةَ. وَذَلِكَ فَشَى اللَّفْظِ عَيْنَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ غَرِيبُ الْإِسْتِعْمَالِ
وَالْآخَرُ أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى السَّمْعِ كَرِيهٌ عَلَى الذَّوْقِ. وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ بِهِذِهِ
الصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فِظَاطَتِهِ وَغِلَاطَتِهِ وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى الْوَحْشِيَّ
الْغَلِيظَ وَيُسَمَّى أَيْضًا الْمُتَوَعَّرَ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ فِي الْقُبْحِ دَرَجَةٌ أُخْرَى
وَلَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا أَجْهَلُ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَخْطُرْ بَبَالِهِ شَيْءٌ مِنْ مَعْرِفَةِ
هَذَا الْفَنِّ أَصْلًا. فَإِنْ قِيلَ فَمَا هَذَا النُّوعُ مِنَ الْأَلْفَافِ قُلْتُ قَدْ ثَبِتَ
لَكَ أَنَّهُ مَا كَرَهُهُ سَمْعُكَ وَثَقُلَ عَلَى لِسَانِكَ النُّطْقُ بِهِ. وَسَاصَرِبُ لَكَ
فِي ذَلِكَ مِثَالًا فَمِنْهُ مَا وَرَدَ لِتَابُطٍ^(١) شَرًّا فِي كِتَابِ الْحِمَاسَةِ.

(١) هو ثابت بن جابر بن سفيان أبو زهير الفهمي من مصر: شاعر عدا، =

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيَتَنَسَّى بِغَيْرِهَا
حَجِيشًا وَيَعْرِوْرِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ^(١)

فَإِنَّ لَفْظَةَ حَجِيشٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ الْقَبِيحَةِ. وَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ
أَلَيْسَ أَنَّهَا بِمَعْنَى قَرِيدٍ وَقَرِيدٌ لَفْظَةٌ حَسَنَةٌ رَائِقَةٌ وَلَوْ وَضَعْتَ فِي
هَذَا الْبَيْتِ مَوْضِعَ حَجِيشٍ لَمَا اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ وَزْنِهِ. فَتَأَبَّطْ شَرًّا
مَلُومٌ مِنْ وَجْهَيْنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْقَبِيحَ
وَالْآخَرُ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَذْدُوحَةٌ عَنْ اسْتِعْمَالِهِ فَلَمْ يَعْدِلْ عَنْهُ.
وَمِمَّا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهَا وَرَدَّ لِأَبِي تَمَامٍ قَوْلُهُ:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا أَطْلَخْتُ الْأَمْرُ وَأَنْبَعَثْتُ
عَشَوَاءُ تَالِيَةً غُبَسًا دَهَارِيَسَا^(٢)

= من فتال العرب في الجاهلية. كان من أهل تهامة، شعره فحل، استفتح الضبي
مفضلياته بقصيدة له مطلعها:

”يا عيد مالك من شوق وإيراق“

ويقال إنه كان ينظر إلى الطيبى فى الفلاة فيجربى خلفه فلا يفوته. قتل فى بلاد
هذيل وألقى فى غار يقال له ”رخمان“ فوجدت جثته فيه بعد مقتله.

انظر المزيد فى: شرح شواهد المغنى ١٨، خزنة البغدادى ١/ ٦٦، ثم ٣/ ٣٥٨
و ٤٦٧، المحبر ١٩٦، التبريزى ١/ ٣٧، الذريعة ١/ ٣٢٥، المبهج ١٧.

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه ٥٢. الموماة: المغارة التى لا ماء فيها. الجحيش:
المفرد. يعروري: يرتكب المهالك..

(٢) ويروى ”عُشَوَا دَهَارِيَسَا“ جمع عشواء. ”أطْلَخْتُ الْأَمْرُ“ إذا اشتد وأظلم
ويقال ليل مطْلَحَم، ويوصف به الرجل التكبر. وعنى ”بالعشواء“ داهية يعشى =

فَلَفْظَةُ اِطْلَحْ مِنْ اَلْاَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي جَمَعَتِ الْوُصْفَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ فِي أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ الَّتِي جَمَعَتِ الْوُصْفَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ فِي أَنَّهَا غَرِيبَةٌ وَأَنَّهَا غَلِيظَةٌ فَشَى السَّمْعُ كَرِيبَةً عَلَى الذُّوقِ. وَكَذَلِكَ لَفْظَةُ ذَهَارِيسَ أَيْضًا. وَعَلَى هَذَا وَرَدَ قَوْلُهُ مِنْ أَيْبَاتٍ يَصِفُ فَرَسًا مِنْ جُمَلَتِهَا:

نَعَمْ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ
أَرْوَعُ لَا جَيْدَرُ وَلَا جَبْسُ
فَلَفْظَةُ جَيْدَرٍ غَلِيظَةٌ. وَأَغْلَظُ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِيِّ^(١):

= فيها، وبـ "الغبس" الدواهي السود المظلمة، و "الدهاريس" تستعمل في الدواهي ويجوز أن تنقل "الدهاريس" إلى صفات الإبل والناس لأنه يراد صفتها بالصبر والجرأة على السير.

(١) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم واحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في ضحلة تسمى "كندة" واليها نسبته سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ونشأ بالشام ثم تنقل في البداية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس وقال الشعر صبيًا وتنبأ في بادية السماوة "بين الكوفة والشام" فتبعه كثيرون. وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ "أمير حمص ونائب الإخشيد" فأسرّه وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ووفد على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٣٣٧ هـ فمدحه وحظى عنده ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى وطلب منه أن يوليّه فلم يولّه كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوّه وقصد العراق، فقرأ عليه =

جَفَحَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَحُونَ بِهَا بِهِمْ

شِيمٌ عَلَى الْحَسْبِ الْأَعْرُ دَلِيلٌ^(١)

فَإِنْ لَفْظَةَ جَفَحَ مَرَّةَ الطَّعْمِ وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى السَّمْعِ اقْشَعَرَّ مِنْهَا
وَأَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِهَا كَاسْتِعْمَالِ تَابَّطَ شَرًّا لَفْظَةَ حَجِيشَ.
فَإِنْ تَابَّطَ شَرًّا كَانَتْ لَهُ مَنذُوحَةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِ تِلْكَ اللَّفْظَةِ كَمَا
أَشْرَنَّا إِلَيْهِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَكَذَلِكَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ
الَّتِي هِيَ جَفَحَتْ فَإِنْ مَعْنَاهَا فَخَرْتُ وَالْجَفْحُ الْفَخْرُ يُقَالُ جَفَحَ
فُلَانٌ إِذَا فَخَرَ وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَوَضًا عَنْ جَفَحَتْ فَخَرْتُ لَا اسْتَقَامَ
وَزُنُ الْبَيْتِ وَحَظَى فِي اسْتِعْمَالِهِ بِالْأَحْسَنِ وَمَا أَعْلَمُ كَيْفَ يَذْهَبُ

= ديوانه. وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه
مساحلات ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد
فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه
ومع المتنبي جماعة أيضًا فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محمد وغلामه
مفلح بالنعمانية بالقرب من دير العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد سنة
٣٥٤هـ / ٩٦٥ م.

انظر الزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٣٦، معاهد التنصيص ١/ ٢٧، تاريخ ابن
الوردى ١/ ٢٩٠، لسان الميزان ١/ ١٥٩، المنتظم ٧/ ٢٤، تاريخ بغداد ٤/ ١٠٢.
(١) جَحَفَ وجَمَحَ: إذا فخر والشيم الأخلاق. وقيل هي الدلائل وفاعل جحفت
شيم تقديره جحفت بهم شيم وهم لا يجحفون بها. يقول: إن شيمهم تفتخر بهم،
لحلوها فيهم وهم لا يفتخرون بها لأن أخطارهم أعظم من أن تلك الشيم هي أشرف
الشيم من حيث أنها دلائل على حسبهم الأغر الكريم.

هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الْوَحْيُ الْغَلِيظُ
الَّذِي ذَكَرْتُهُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ هُوَ الْوَحْشِيُّ الْغَلِيظُ
الَّذِي لَبَسَ لَهُ مَا يُدَانِيهِ فِي قُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ وَهَذِهِ الْأُمَثَلَةُ دَلِيلُ
عَلَى مَا أَرَادْنَاهُ. وَالْعَرَبُ إِذَنْ لَا تُتْلَمُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْغَرِيبِ
الْحَسَنِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا تُتْلَمُ عَلَى الْغَرِيبِ الْقَبِيحِ وَأَمَّا الْحَضَرِيُّ
فَإِنَّهُ يُلَامُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْقِسْمَيْنِ مَعًا وَهُوَ فِي أَحَدِهِمَا أَشَدُّ مَلَامَةً
مِنْهُ فِي الْآخَرِ.

(من المثل السائر)

القِسْمُ الثَّانِي

فِي الْكَلَامِ

قَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنْ مُدْعَى هَذِهِ الصَّنَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْكَلَامَ
الْفَصِيحَ هُوَ الَّذِي يَعْزُ فَهْمُهُ وَيَبْعُدُ مُتَنَاوَلُهُ وَإِذَا رَأَوْا كَلَامًا وَخَشِيًا
غَامِضَ الْأَلْفَاطِ يُعْجَبُونَ بِهِ وَيَصِفُونَهُ بِالْفَصَاحَةِ وَهُوَ بِالضَّدِّ مِنْ
ذَلِكَ لِأَنَّ الْفَصَاحَةَ هِيَ الظُّهُورُ وَالْبَيَانُ لَا الْقُمُوضُ وَالْخَفَاءُ وَسَائِبِينَ
لَكَ مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَأَقُولُ الْأَلْفَاطُ تَنْقَسِمُ فِي
الِاسْتِعْمَالِ إِلَى جَزَلَةٍ وَرَقِيقَةٍ وَلِكُلِّ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ يَحْسُنُ اسْتِعْمَالُهُ
فِيهِ. فَالْجَزَلُ مِنْهَا يُسْتَعْمَلُ فِي وَصْفِ مَوَاقِفِ الْحُرُوبِ وَفِي قَوَارِعِ
التَّهْدِيدِ وَالتَّخْوِيفِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ. وَأَمَّا الرَّقِيقُ مِنْهَا فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ
فِي وَصْفِ الْأَشْوَاقِ وَذِكْرِ أَيَّامِ الْبَعَادِ وَفِي اسْتِجْلَابِ الْمَوَدَّاتِ
وَمُلَاتِينَاتِ الْإِسْتِعْطَافِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ. وَلَبَسْتُ أَغْنِي بِالْجَزَلِ مِنْ
الْأَلْفَاطِ أَنْ يَكُونَ وَخَشِيًا مُتَوَعِّرًا عَلَيْهِ عَنُجْهِئَةُ الْبَدَاوَةِ بَلْ أَغْنِي
بِالْجَزَلِ أَنْ يَكُونَ مَبْنِيًّا عَلَى عُدُوْبَتِهِ فِي الْقَمِّ وَلَذَاتِهِ فِي السَّمْعِ.
وَكَذَلِكَ لَسْتُ أَغْنِي بِالرَّقِيقِ أَنْ يَكُونَ رَكِيكًا سَفْسَافًا وَإِنَّمَا هُوَ
اللَّطِيفُ الرَّقِيقُ الْحَاشِيَّةُ النَّاعِمُ الْمَلْبَسُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ^(١):

(١) ورد هذا البيت في ديوانه ٢ / ٤٥٠.

نَاعِمَاتِ الْأَطْرَافِ لَوْ أَنَّهَا تَأْ

بَسُ أَغْنَتْ عَنِ الْمُلَاءِ الرَّقَاقِ

وَسَأَضْرِبُ لَكَ مِثَالًا لِلْجَزْلِ مِنَ الْأَلْفَافِ وَالرَّقِيقِ فَأَقُولُ انْظُرْ إِلَى
قَوَارِعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ ذِكْرِ الْحِسَابِ وَالْعَذَابِ وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ وَعِنْدَ
ذِكْرِ الْمَوْتِ وَمُفَارَقَةِ الدُّنْيَا وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فَإِنَّكَ لَا تَرَى
شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَخَشِي الْأَلْفَافِ وَلَا مَتَوَعِّرًا. ثُمَّ انْظُرْ إِلَى ذِكْرِ الرَّحْمَةِ
وَالرَّأْفَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالْمَلَأْطَفَاتِ فِي خِطَابِ الْأَنْبِيَاءِ وَخِطَابِ الْمُنِيبِينَ
وَالتَّائِبِينَ مِنَ الْعِبَادِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فَإِنَّكَ لَا تَرَى شَيْئًا
مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفَ الْأَلْفَافِ وَلَا سَفْسَاقًا. فَمِثَالُ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْجَزْلُ مِنَ
الْأَلْفَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَفِخْ فِي الصُّورِ فَصُعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ
قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ. وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ.
قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ.
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا خَالِدِينَ
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ تَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٣﴾ [سورة الزمر: الآيات ٦٨ إلى ٧٣]. فَتَأْمَلْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُضْمَنَةَ ذِكْرَ الْحَشْرِ عَلَى تَفَاصِيلِ أَحْوَالِهِ وَذِكْرَ النَّارِ وَالْجَنَّةِ وَانْظُرْ هَلْ فِيهَا لَفْظَةٌ إِلَّا وَهِيَ سَهْلَةٌ مُسْتَعْدَبَةٌ عَلَى مَا بَيَّهَا مِنَ الْجَزَالَةِ. وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيهَا شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٤]. وَأَمَّا مِثَالُ الثَّانِي وَهُوَ الرِّفِيقُ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُحَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [سورة الضحى: الآية ١]. إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَرْغِيبِ الْمُسْتَلْتَلَةِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨]. وَهَكَذَا تَرَى سَبِيلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي كَلَامِ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ مِنَ الْجَزَالَةِ وَالرَّفْعَةِ. وَكَذَلِكَ كَلَامُ الْعَرِّ الْأَوَّلِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ مِمَّا وَرَدَ عَنْهَا نَثْرًا وَيَكْفِي مِنْ ذَلِكَ كَلَامُ قَبِيصَةَ بْنِ نَعِيمٍ لَمَّا قَدِمَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ (١) فِي

(١) هُوَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ بْنِ الْحَارِثِ الْكَنْدِيُّ مِنْ بَنِي أَكَلِ الْمَرَارِ، أَشْهُرُ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. يَمَانِي الْأَصْلُ مَوْلَدُهُ يَنْجَدُ نَحْوَ ١٣٠ هـ / ٤٩٧ م أَوْ بِمُخْلَافِ السَّكَاسِكِ بِالْيَمَنِ اشْتَهَرَ بِلِقَبِهِ. وَاخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي اسْمِهِ فَقِيلَ حُنْدُجٌ وَقِيلَ مَلِيكَةٌ وَقِيلَ عَدَى. وَكَانَ أَبُوهُ مَلِكُ أَسَدٍ وَغُطْفَانَ. وَأُمُّهُ أُخْتُ الْمَهْلِيلِ الشَّاعِرِ، فَلَقَنَهُ الْمَهْلِيلُ الشَّعْرَ، فَقَالَ هُوَ غَلَامٌ، وَجَعَلَ يَشَبُّ وَيَلْهَوُ وَيَعَاشِرُ صَعَالِيكَ الْعَرَبِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَاهُ، فَنَهَاه عَنْ سِيرَتِهِ فَلَمْ يَنْتَهَ، فَأَبْعَدَهُ إِلَى "دُمُونٍ" =

أَشْيَاخَ لِبَنِي أَسَدٍ^(١) يَسْأَلُونَهُ الْعَفْوَ عَنْ دَمِ أَبِيهِ فَقَالَ لَهُ إِنَّكَ فِي

= بحضرموت موطن آبائه وعشيرته وهو في نحو العشرين من عمره فأقام زهاء خمس سنين، ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويفزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك أمرو القيس وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر، ونهض من غده فلم يزل حتى ثار لأبيه من بني أسد. وقال في ذلك شعراً كثيراً. وكانت حكومة فارس ساخطة على بني آكل الرار "آباء امرئ القيس" فأوعزت إلى المنذر "ملك العراق" بطلب امرئ القيس فطلبه، فابتعد وتفرق عنه أنصاره فطاف قبائل العرب حتى انتهى إلى السموأل، فأجازه فمكث عنده مرة ثم رأى أن يستعين بالروم على الفرس. فقصد الحارث بن أبي شمر الغساني "والى بادية الشام" فسيره هذا إلى قيصر الروم يوستينياس Justinianus ويسمى Justinienler في القسطنطينية فوعده ومطله ثم ولاه إمرة فلسطين "البادية" ولقبه "فيلاروق Phylayck"، أى الوالى، فرحل يريداه. فلما كان بأنقره ظهرت في جسمه قروح. فأقام إلى أن مات في أنقره سنة ٨٠ هـ/ ٥٤٥ م.

انظر المزيد فى: الأغاني ٩/ ٧٧، تهذيب ابن عساكر ٣/ ١٠٤، شرح شواهد المغنى ٦، جمهرة أنساب العرب ٣٩، الشعر والشعراء ٣١، خزائن البغدادى ١٦٠/ ١ ثم ٦٠٩ - ٦٢٢، النريعة ٢/ ٣٤٩، صحيح الأخبار ٦/ ١ و ١٦ - ١١٠.

(١) هو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر جد جاهلى ينسب إليه بعض الأسيديين وكانت بلادهم فى نجد ثم تفرقوا وتكاثروا فى شمال شبه الجزيرة وراء جبال شمر، ونزل جماعات منهم بين البصرة والكوفة، وفى الكوفة نفسها فى حى خاص بهم وقطن آخرون منهم بلدة "سَطِيف" غربى القيروان فى إفريقية. وكانت منهم فرق فى جيوش عُلَى والحسين والمختار والمهلب وابنه يزيد. =

الْمَحَلِّ وَالْقَدَرِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِتَصَرُّفِ الدَّهْرِ وَمَا تُحْدِثُهُ أَيَّامُهُ وَتَنْتَقِلُ
 بِهِ أَحْوَالُهُ بِحَيْثُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَذْكِيرٍ مِنْ وَاعِظٍ وَلَا تَبْصِيرٍ مِنْ
 مُجَرِّبٍ. وَلَكَ مِنْ سُؤْدُدِ مَنْصِبِكَ وَشَرَفِ أَعْرَافِكَ وَكَرَمِ أَصْلِكَ فِي
 الْعَرَبِ مَحْتَدٍ يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثَرَةِ وَالرُّجُوعِ عَنِ
 الْهَفْوَةِ وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهَمَمُ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ
 مِنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ وَكَرَمِ الصُّفْحِ مَا يَطُولُ رَغْبَاتِهَا
 وَيَسْتَغْرِقُ طَلِبَاتِهَا. وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْخُطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي
 عَمَّتْ رَزِيئَتُهُ نِزَارًا وَالْيَمَنَ وَلَمْ نُخْصَصْ بِذَلِكَ كِنْدَةً دُونَنَا لِلشَّرَفِ
 الْبَارِعِ الَّذِي كَانَ لِحُجْرٍ وَلَوْ كَانَ يُفَدِّ هَالِكًا بِالْأَنْفُسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ
 لَمَا بَخَلْتَ أَكْرَامُنَا بِهَا عَلَى مِثْلِهِ وَلَكِنَّهُ مَضَى بِهِ سَبِيلُ لَا تَرْجِعُ
 أَخْرَاهُ عَلَى أَوْلَاهُ وَلَا يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَذْنَاهُ. فَاحْمَدُ الْحَالَاتِ فِي ذَلِكَ
 أَنْ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْدَى خِلَالِ ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ تَخْتَارَ
 مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا وَأَعْلَاهَا فِي بَنَاءِ الْمَكْرُمَاتِ صَوْتًا فَتَقُودَهُ
 إِلَيْكَ بِنَسْعِهِ نَذْهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِبَاقِي قَصْرَتِهِ فَتَقُولُ
 رَجُلٌ امْتَحَنَ بِهَالِكٍ عَزِيرٍ فَلَمْ يَسْنَلْ صَخِيمَتَهُ إِلَّا بِمُكْنَتِهِ مِنَ
 الْإِنْتِقَامِ وَإِمَّا فِدَاءُ بِمَا يَرْوَحُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ مِنْ نَعْمِهَا فَهِيَ أَلُوفُ
 تُجَاوِزُ الْخُمْسَةَ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِدَاءً تَرْجِعُ بِهِ الْقُضْبُ إِلَى أَجْفَانِهَا.
 وَإِمَّا أَنْ تُوَادِعَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ فَتُسَدَّلَ الْأُرُرُ وَتُعَقَّدَ الْخُمُرُ

= انظر المزيد في: سبائك الذهب ٥٨، جمهرة أنساب العرب ٤٣٥.

فَوْقَ الرَّاياتِ. قَالَ فَبَكَى الْحَوَامِلُ فَتُسَدَّلَ الْأُزُرُ وَتُعْقَدَ الْخُمُرُ فَوْقَ
الرَّاياتِ. قَالَ فَبَكَى سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ
أَنَّهُ لَا كَفُوَ لِحُجْرٍ فِي دَمٍ وَإِنِّى لَنْ أَعْتَاضَ جَمَلًا وَلَا نَاقَةً فَأَكْتَسِبَ
بِهِ سُيِّئَةَ الْأَبَدِ وَقَتَّ الْعُضْدِ. وَأَمَّا النُّظْرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجْنَةُ فِي
بُطُونِ أُمَهَاتِهَا وَلَنْ أَكُونَ لِعَظِيمِهَا سَبَبًا وَسَتَعْرِفُونَ طَلَائِعَ كِنْدَةَ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ تَحْمِلُ فِي الْقُلُوبِ حَنَقًا وَفَوْقَ الْأَسِنَّةِ عُلَقًا:

إِذَا جَالَتِ الْخَيْلُ فِي مَازِقِ

تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا

أَتَقِيْمُونَ أَمْ تَنْصَرِفُونَ. قَالُوا بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَا الْإِخْتِبَارِ
وَأَبْلَى الْإِجْتِرَارِ بِمَكْرُوهِهِ وَأَذِيَّةِ وَحَرْبِ وَبِلِيَّةِ. ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ
وَقَبِيصَةٌ يَتَمَثَّلُ:

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْحِمَ الْوَرْدَ إِنْ عَدَتْ

كَتَائِبُنَا فَنِي مَازِقِ الْحَرْبِ تَمْطُرُ

فَقَالَ أَمْرُ الْقَيْسِ لَا وَاللَّهِ وَلَكِنْ أَسْتَعِذُّهُ فَرَوَيْدًا يَنْفَرُجُ لَكَ دُجَاهَا
مِنْ فُرْسَانِ كِنْدَةَ وَكَثَائِبِ حَمِيرٍ^(١) وَلَقَدْ تَنَانُ ذِكْرُ غَيْرِ هَذَا بِي أَوَّلَى

(١) هو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد جاهلى قديم. كان
ملك اليمن، واليه نسبة الحميريين "ملوك اليمن وأقباله" وكان شجاعاً مظفرًا يقول
مؤرخو العرب إنه حكم بعد أبيه سبأ وعاصمة ملكة صنعاء، وأنه غزا وافتتح حتى
بلغ بعض غرائه الصين. وأخذ تاجاً من الذهب فكان أول من تتوج به. ويذكرون
من وقاعة قتاله لقبائل ثمود. وكان مقامها فى اليمن ففرقها فارتحلت إلى =

إِذْ كُنْتَ نَازِلًا بِرَبِّعِي وَلَكِنَّكَ قُلْتَ فَأَوْجِبْتَ فَلْتَنْظُرْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ
مِنَ الرَّجُلَيْنِ قَبِيصَةَ وَأَمْرِي؛ الْقَيْسُ حَتَّى يَدْعَ الْمُتَعَمِّقُونَ نَعْمَهُمْ
فِي اسْتِعْمَالِ الْوَحْشِيِّ مِنَ الْأَلْفَافِ فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ قَدْ كَانَ فِي الزَّمَنِ
الْقَدِيمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلَ سَاكِنٍ فِي الْفَلَاةِ لَا يَرَى إِلَّا شَيْحَةً أَوْ قَيْصُومَةً
وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا ضَبًّا أَوْ يَرْبُوعًا فَمَا بَالُ قَوْمٍ سَكَنُوا الْحَضَرَ وَوَجَدُوا
رَقَّةَ الْعَيْشِ يَتَعَاطَوْنَ وَخَشِيَ الْأَلْفَافِ وَشَظَفَ الْعِبَارَاتِ وَمَا يُخِلُّدُ
إِلَى ذَلِكَ إِلَّا إِمَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَضَاحَةِ وَإِمَّا عَاجِزٌ عَنْ سُلُوكِ

=الحجاز، وأنه عاش خمسين سنة بعد أبيه. وولد له خمسة أولاد: مالك وعامر
وعمر وسعد ووائل. ومن بطون حمير: السكاسك "وقيل: هم من كنده" والشعبيون
وبنو الريان وقضاعة وعبد شمس. ومن ملوك الحميريين: القبايع والأدواء والأقيال،
ويرى بعضهم أن اسمه "العرنج" وأنه لقب بحمير لكثرة لبسه الثياب الحمرة. وكان
يكتب بالمسند على جميع سلاحه. وفي الجبال التي يمر بها. قال صاحب
التيجان: ثم حوله إلى الخط "الحميري" المنسوب إليه. ولما حان موته قال لبنيه:
إني لأجد ثقل الثرى وغم الضريح فاجعلوا لي نفقاً في هذا الجبل - جبل عيفر -
وأجلسوني فيه، ففعلوا به ذلك، فهو - على رواية وهب بن منبه - أول من جعل
في مغارة، وقد وضعت معه في تلك المغارة دراعه، أنفة من أن يلبسها بعده غيره.
وكان لبني حمير في الجاهلية صنم اسمه "نَمْر" منصوب بنجران، وآخر اسمه
"رثام" بصنعاء. وفي طرفه الأصحاب "المقول إنه من تأليف الأشرف الرسول"
سلسلة ملوك حمير، كما كانت معروفة في عصر الأشرف.

انظر المزيد: التيجان ٥١، جمهرة أنساب العرب ٤٠٦ و ٤٥٩، نهاية الأرب
١/٥، ٢٩١، الأكليل ٨/ ١٧٩ - ١٨٠، طرفة الأصحاب ١٢ و ٤٣.

طَرِيقَهَا. فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ شَدَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْأَدَبِ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَحْشِيِّ مِنَ الْكَلَامِ وَذَٰكَ أَنَّهُ يَلْتَقِطُهُ مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ أَوْ يَتَلَقَّاهُ مِنْ أَرْبَابِهَا. وَأَمَّا الْفَصِيحُ الْمُتَّصِفُ بِصِفَةِ الْمَلَاخَةِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَوْ قَدَّرَ عَلَيْهِ لَمَّا عِلِمَ أَيْنَ يَضَعُ يَدَهُ فِي تَأْلِيفِهِ وَسَبْكِهِ فَإِنْ مَارَى فِي ذَلِكَ مُفَارًا فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْعَارِ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ مِمَّنْ كَانَ مُشَارًا إِلَيْهِ حَتَّى يَعْلَمَ صِحَّةَ مَا ذَكَرْتُهُ. هَذَا ابْنُ دُرَيْدٍ^(١). قَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَشْعَرُ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى شِعْرِهِ وَجَدْتَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى شِعْرِ الشُّعْرَاءِ الْمُجِيدِينَ مُنْحَطًا مَعَ أَنَّ أَوْلَٰئِكَ الشُّعْرَاءَ لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من أزد عمان من قحطان أبو بكر، من أئمة اللغة والأدب كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء وهو صاحب "المقصورة الدريدية" ولد في البصرة سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م وانتقل إلى عمان فأقام اثنتي عشر عامًا، وعاد إلى البصرة ثم حل إلى نواحي فارس، فقلده "آل ميكال" ديوان فارس ومدحهم بقصيدته "المقصورة" ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارًا فأقام إلى أن توفي سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م. ومن كتبه "الاشتقاق" في الأنساب و"المقصود والممدود" و"شرحه" و"الجمهرة" في اللغة ثلاثة مجلدات و"دخائر الحكمة" رسالة و"المجتنى" و"صفة السرج واللجام" و"الملاحن" و"السحاب والغيث" و"تقويم اللسان" و"أدب الكاتب" و"الأمالي" و"الوشاح" و"زوار العرب" و"اللغات".

انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٦/ ٤٨٣، وفيات الأعيان ١/ ٤٩٧، طبقات السبكي ٢/ ١٤٥، آداب اللغة ٢/ ١٨٨، لسان الميزان ٥/ ١٣٢، نزهة الألباء ٣٢٢. المرزباني ٦١؛ تاريخ بغداد ٢٣/ ١٩٥، خزنة الأدب ١/ ٤٩٠ - ٤٩١.

عِلْمُ الْأَدَبِ عَشْرَ مِئْثَارٍ مَا عَلِمَهُ. هَذَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ^(١) قَدْ
كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الشُّعْرَاءِ الْمُجِيدِينَ وَشِعْرُهُ كَمَمَرٍ نَسِيمٍ عَلَى عَذَابَاتِ
أَغْصَانٍ وَكُلُولَاتٍ طَلَّ عَلَى طُرُرٍ رِيحَانٍ وَلَيْسَ فِيهِ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ
غَرِيبَةٌ يُحْتَاجُ إِلَى اسْتِخْرَاجِهَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ.

(انتهى ملخصاً عن المثل السائر)

(١) هو العباس بن الأخنف بن الأسود الحنفى اليمامى أبو الفضل: شاعر غزل
رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس. أصله من اليمامة "فى نجد" وكان أهله
فى البصرة وبها مات أبوه ونشأ هو ببغداد وتوفى بها سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م وقيل
بالبصرة خالف الشعراء فى طريقتهم فلم يمدح ولم يهجو، بل كان شعره كله غزلاً
وتشبيهاً له "ديوان شعر" وهو خال إبراهيم بن العباس الصولى.

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١ / ٢٤٥، معاهد التنصيص ١ / ٥٤، الأغانى
١ / ٥٤، ٨ / ٣٥٢، الشعر والشعراء ٣٣٥، النجوم الزاهرة ٢ / ١٢٧، البداية والنهاية
١٠ / ٢٠٩، تاريخ بغداد ١٢ / ١٢٧.

obeikandi.com

الفضل الرابع

فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر

إِعْلَمَ أَنَّ لِسَانَ الْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَيْنِ فَنَّ الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ وَهُوَ
الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الْمُقْفَى وَمَعْنَاهُ الَّذِى تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِىٍّ
وَاحِدٍ وَهُوَ الْقَافِيَةُ. وَفَنَّ النَّثَرِ وَهُوَ الْكَلَامُ غَيْرُ الْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ
مِّنَ الْفَنَيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فَنُونٍ وَمَذَاهِبٍ فِى الْكَلَامِ. فَأَمَّا الشَّعْرُ
فَمِنْهُ الْمَذْحُ وَالْهَجَاءُ وَالرِّثَاءُ. وَأَمَّا النَّثَرُ فَمِنْهُ السَّجْعُ الَّذِى يُؤْتَى
بِهِ قِطْعًا وَيُلْتَزَمُ فِى كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا
وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ وَهُوَ الَّذِى يُطْلَقُ فِيهِ الْكَلَامُ إِطْلَاقًا وَلَا يَقْطَعُ أَجْزَاءً
بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَتْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا.

وَيُسْتَعْمَلُ فِى الْخُطْبِ وَالِدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيْبِهِمْ.
وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ
وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلُ آيَاتٍ يَنْتَهَى إِلَى
مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَائِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِى الْآيَةِ
الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُنْتَهَى مِنْ غَيْرِ الْبِتْرَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً
وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا
مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا

الْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلٌ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا
 وَلَا التَّرَمُّ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ
 الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ
 بِأَمِّ الْقُرْآنِ لِلْعَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتْ السَّبْعُ الْمَثَانِي.
 وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدُ
 لَكَ الْحَقُّ بِرُحْجَانٍ مَا قَلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْقُنُونِ
 أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ
 فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشَّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالِدُعَاءِ الْمُخْتَصِّ
 بِالْخُطْبِ وَالِدُعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمَخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَ
 الْمُتَأَخَّرُونَ أَسَالِيبَ الشَّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَسْجَاعِ
 وَالتَّزَامِ التَّقْيِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا
 الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشَّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرَفًا إِلَّا فَنَى الْوُزْنَ.
 وَاسْتَمَرَّ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاسْتَعْمَلُوهَا فِي
 الْمَخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا الْإِسْتِعْمَالَ فِي الْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هَذَا
 الْفَنِّ الَّذِي ارْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا الْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا الْمُرْسَلِ وَتَنَاسَوْهُ
 وَخُصُوصًا أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَصَارَتْ الْمَخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ لِهَذَا الْعَهْدِ
 عِنْدَ الْكِتَابِ الْعَقْلِ جَارِيَةً عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ.
 وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ الْبَلَاغَةِ لِمَا يَلَاخِظُ فِي تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى
 الْفَنِّ الْمَنْثُورِ الْمُقَفَّى أَدْخَلَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ الشَّعْرِ فَوَجَبَ

أَنْ تُنَزَّهَ الْمُخَاطَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ الشَّعْرِ تُنَافِيهَا
 اللُّؤْذَعِيَّةُ وَخَلَطُ الْجَدِّ بِالْهَزْلِ وَالْإِطْنَابُ فِي الْأَوْصَافِ وَضَرْبُ
 الْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ التَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةُ إِلَى
 ذَلِكَ فِي الْخُطَابِ. وَالْمَحْمُودُ فِي الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ التَّرْسُلُ
 وَهُوَ إِطْلَاقُ الْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي الْأَقْلِ النَّادِرِ
 وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ الْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ الْكَلَامِ
 حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَإِنَّ الْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةً وَلِكُلِّ مَقَامٍ
 أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَانٍ أَوْ إِنْجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ
 أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ الْمُخَاطَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى
 هَذَا النُّحُوِّ الَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ الشَّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ
 أَهْلَ الْعَصْرِ إِلَّا اسْتِيْلَاءُ الْعُجْمَةِ عَلَى السَّنَنِيَّةِ وَقُصُورُهُمْ لِذَلِكَ عَنْ
 إِعْطَاءِ الْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ
 حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ الْكَلَامِ الْمُرْسَلِ لِبُعْدِ
 أَمْدِهِ فِي الْبَلَاغَةِ وَانْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهَذَا الْمَسْجَعِ يُلَقِّقُونَ بِهِ
 مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى الْحَالِ فِيهِ
 وَيَجْبِرُونَهُ بِذَلِكَ الْقَدْرَ مِنَ التَّرْيِيزِ بِالْأَسْجَاعِ وَالْأَلْقَابِ الْبَدِيعَةِ
 وَيَعْمَلُونَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهَذَا الْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي
 سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كِتَابُ الْمَشْرِقِ وَشِعْرَاؤُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ
 لَيُخْلَوْنَ بِالْإِعْرَابِ فِي الْكَلِمَاتِ وَالتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي

تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرْجَحُونَ ذَلِكَ الصَّنْفَ مِنَ
التَّجْنِيسِ وَيَدْعُونَ الْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بَنِيَّةَ الْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ
التَّجْنِيسَ. فَتَأْمَلْ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ
وَاللَّهُ الْمُوفِّقُ إِلَى الصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(عن ابن خلدون)

الفضل الخامس

فى السجع

إِعْلَمُ أَنَّ السَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ. الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ
الْفَضْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحى: الآية ٩].
وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ
ضُبْحًا. فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [سورة العاديات:
الآية ١]. أَلَا تَرَى كَيْفَ جَاءَتْ هَذِهِ الْفُصُولُ مُتَسَاوِيَةً الْأَجْزَاءُ
حَتَّى كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَشَى الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشْرَفُ السَّجْعِ مَنْزِلَةٌ لِلْإِعْتِدَالِ الَّذِي فِيهِ
الْفُسْمُ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ الثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ الْأَوَّلِ لَا طَوْلًا
يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الْإِعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبَحُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيُسْتَكْرَهُ
وَيُعَدُّ عَيْبًا. فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ
وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ
سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُنْقَاوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَا
هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [سورة الفرقان: الآيات ١١ - ١٣]. أَلَا تَرَى أَنَّ
الْفَضْلَ الْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفْظَاتٍ وَالْفَضْلَ الثَّانِي وَالثَّلَاثَ تِسْعَ تِسْعٍ:

وَيُسْتَنْتَى مِنْ هَذَا الْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ السَّجْعِ عَلَى ثَلَاثٍ فَقَرَّ فَإِنَّ
 الْفَقْرَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ يُحْسِبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ تَأْتِي الثَّلَاثَةُ فَيَنْبَغِي
 أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طَوْلًا يَزِيدُ عَلَيْهِمَا فَإِذَا كَانَتِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ
 أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ تَكُونُ الثَّلَاثَةُ عَشَرَ لَفْظَاتٍ أَوْ إِحْدَى
 عَشْرَةً. إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ ذَلِكَ قِيَاسًا مُطَرِّدًا فِي السَّجَعَاتِ
 الثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنَ الْكَلَامِ بَلْ تَعْلَمُ أَنَّ الْجَوَازَ يَعْمُ الْجَانِبَيْنِ
 مِنَ التَّنَاسُؤِ فِي السَّجَعَاتِ الثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ السَّجْعَةِ الثَّلَاثَةِ.
 أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ. مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ
 مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنضُودٍ. وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾. فَهَذِهِ السَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ
 لَفْظَتَيْنِ لَفْظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ الثَّلَاثَةُ مِنْهَا خَمْسَ لَفْظَاتٍ أَوْ سِتًّا لَمَا
 كَانَ ذَلِكَ مَعْيِبًا.

الْقِسْمُ الثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ الْآخِرُ أَقْصَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي
 غَيْبٌ فَاحِشٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ السَّجْعَ يَكُونُ قَدْ اسْتَوْفَى أَمَدَهُ
 مِنَ الْفَضْلِ الْأَوَّلِ بِحُكْمِ طُولِهِ ثُمَّ يَجِيءُ الْفَضْلُ الثَّانِي قَصِيرًا عَنِ
 الْأَوَّلِ فَيَكُونُ كَالشَّيْءِ الْمُبْتَوَّرِ فَيَبْقَى الْإِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ كَمَنْ يُرِيدُ
 الْإِنْتِهَاءَ إِلَى غَايَةٍ فَيَعْتَرُ دُونَهَا.

وَإِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى هَهُنَا وَبَيْنَنَا أَقْسَامُ السَّجْعِ وَلُبُّهُ وَقُشُورُهُ فَسَنَقُولُ
 فِيهِ قَوْلًا كُلِّيًّا وَهُوَ أَنَّ السَّجْعَ عَلَى اخْتِلَافِ أَقْسَامِهِ ضَرْبَانِ أَحَدُهُمَا

يُسَمَّى السَّجْعَ الْقَصِيرَ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّجْعَتَيْنِ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَلْفَاظٍ قَلِيلَةٍ وَكُلَّمَا قَلَّتِ الْأَلْفَاظُ كَانَ أَحْسَنَ لِقُرْبِ الْفَوَاصِلِ الْمَسْجُوعَةِ مِنْ سَمْعِ السَّامِعِ وَهَذَا الضَّرْبُ أَوْعَرُ السَّجْعِ مَذْهَبًا وَأَبْعَدُهُ مُتَنَاوَلًا وَلَا يَكَادُ اسْتِعْمَالُهُ يَقَعُ إِلَّا نَادِرًا. وَالضَّرْبُ الْآخَرُ يُسَمَّى السَّجْعَ الطَّوِيلَ وَهُوَ ضِدُّ الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ أَسْهَلُ مُتَنَاوَلًا. وَإِنَّمَا كَانَ الْقَصِيرُ مِنَ السَّجْعِ أَوْعَرُ مَسْلَكًا مِنَ الطَّوِيلِ لِأَنَّ الْمَعْنَى إِذَا صِيغَ بِالْأَلْفَاظِ قَصِيرَةٍ عَزُ مُؤَاتَاةُ السَّجْعِ فِيهِ لِقَصْرِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَضِيقُ الْمَجَالِ فِي اسْتِجْلَابِهِ وَأَمَّا الطَّوِيلُ فَإِنَّ الْأَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجْلَبُ لَهُ السَّجْعُ مِنْ حَيْثُ وَلَيْسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذَلِكَ سَهْلًا. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ تَتَفَاوَتْ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ الْأَلْفَاظِ. أَمَّا السَّجْعُ الْقَصِيرُ فَأَحْسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفْظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [سورة المراسلات: الآية ١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [سورة المدثر: الآيات ١ - ٤]. وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفًا مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذَلِكَ الْعَشْرَةُ وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ. فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [سورة النجم: الآية ١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلٌّ أُمَمٌ مُّسْتَقِرَّةٌ ﴿١﴾ [سورة القمر: الآيات ١ - ٣]. وَأَمَّا السَّجْعُ الطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتْ فِي الطَّوِيلِ أَيْضًا فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ السَّجْعِ الْقَصِيرِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيْفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةِ إِلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا. وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مِّمَّسَةٍ لَيَكُونُ مِنَّا نَكِيرًا﴾ [سورة النازعات: الآيات ١٠ - ١٢]. فَالْأَوَّلَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً وَالثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة: الآيات ١٢٨ - ١٢٩]. وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيْفُهُ مِنَ الْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا. وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّنُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٤٣ - ٤٤]. وَمِنَ السَّجْعِ الطَّوِيلِ أَيْضًا مَا يَزِيدُ عَلَى هَذِهِ الْعِدَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ.

(عن المثل السائر)

الفصل السادس

فى كَيْفِيَّةِ عَمَلِ الشَّعْرِ وَوَجْهِ تَعْلُمِهِ

إِعْلَمْ أَنَّ لِعَمَلِ الشَّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ شُرُوطًا أَوَّلُهَا الْحِفْظُ مِنْ جِنْسِيَّتِهِ أَى مِنْ جِنْسِ شَعْرِ الْعَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهَا وَيُتَخَيَّرُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الْحَرِّ النَّقِيِّ الْكَثِيرِ الْأَسَالِيبِ. وَهَذَا الْمَحْفُوظُ الْمُخْتَارُ أَقَلُّ مَا يَكْفِي فِيهِ شِعْرُ شَاعِرٍ مِنَ الْفُحُولِ الْإِسْلَامِيِّينَ مِثْلِ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ^(١)

(١) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي التُّرَشِي أَبُو الْخَطَّابِ أَرَقَ شعراء عصره من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن فى قريش أشعر منه. ولد فى الليلة التى توفى بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م فسمى باسمه. وكان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقربه ورفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرض لنساء الحاج ويسبب بهن، فنفاه إلى "دهلك" ثم غزا فى البحر فاحترقت السفينة به وبعث معه فمات فيها غرقاً سنة ٩٣ هـ / ٧١٢ م. له "ديوان شعر".

انظر المزيد فى: وفيات الأعيان ١/ ٣٥٣ و ٣٧٨، سرح العيون ١٩٨، الأغاني ١/ ٦١، شرح شواهد الغنى ١١، الشعر والشعراء ٢١٦، خزائن البغدادى ١/ ٢٤٠.

وَكُثِيرٌ^(١) وَذِي الرُّمَّةِ^(٢) وَجَرِيرٌ^(٣) وَأَبَى نُوَّاسٍ وَحَبِيبٌ

(١) هو كثير بن عبد الله بن مالك التميمي النهشلي المعروف بابن الغريزة شاعر أدرك الجاهلية والإسلام وقال الشعر فيهما. أورد له صاحب الأغاني أبياتاً في رثاء جماعة قتلوا في وقعة بالطالقان وكان قد شهدا معهم في عهد عمر، أولها:
سقى وزن السحاب إذا استهلكت

مصارع فتية بالجوزجان

قال الرزباني: عاش إلى إمرة الحجاج و"الغريزة" أمه وكانت سبية من تغلب.
مات سنة ٧٠ هـ / ٦٩٠ م.

انظر المزيد في: الأغاني ١٠ / ٩١ و ١١ / ٢٧٨ - ٢٨٠، سمط اللآلئ ٣ / ٢٨، الإصابة ت ٧٤٨٥، خزانة الأدب ٤ / ١١٨، الرزباني ٣٤٩.

(٢) هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي من مضر أبو إلحارث ذو الرمة شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامريء القيس وختم بذى الرمة. وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلاله، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيماً بالبادية يحضر إلى الإمامة والبصرة كثيراً وامتاز بإجادة التشبيه. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: "ما بال عينك منها الماء ينسكب" لكان أشعر الناس. وقال الأصمعي: لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيراً من شعره، فكان ذلك خيراً له. وعشق "مية" المتقرية واشتهر بها. له "ديوان شعر: في مجلد ضخّم توفي بأصبهان وقيل بالبادية سنة ١١٧ هـ / ٧٣٥ م وكان مولده سنة ٧٧ هـ / ٦٩٦ م.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١ / ٤٠٤، الموشح ١٧٠ - ١٨٥، الشعر والشعراء ٢٠٦، معاهد التنصيص ٣ / ٢٦٠، خزانة الأدب ١ / ٥١ - ٥٣، جهرة أشعار العرب ١٧٧، طبقات الشعراء ١٢٥، تزيين الأسواق ١ / ٨٨، الشريشي ٢ / ٥٣.
(٣) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم =

وَالْبُخْتَرِيُّ وَالرُّضِيُّ^(١) وَأَبَى فِرَاسٍ^(٢) وَأَكْثَرُهُ شِعْرُ كِتَابٍ

= أشعر أهل عصره ولد سنة ٢٨ هـ / ٦٤٠ م ومات في اليمامة سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءاً مرّاً - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفاً ومن أغزل الناس شعراً. وقد جمعت "نقائضه مع الفرزدق" في ثلاثة أجزاء و"ديوان شعره" في جزأين. وأخبره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جداً. وكانت يكنى أبايَ حَزْرَةَ.

انظر المزيد في: الأغاني ٨ / ١٢٥، وفيات الأعيان ١ / ١٠٢، طبقات الشعراء، الشريشي ٢ / ٢٤٩، شرح شواهد المغنى ١٦، الشعر والشعراء ١٧٩، خزنة البغدادى ١ / ٣٦.

(١) هو محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضى العلوى الحسينى المرسونى، أشعر الطالبين، على كثرة المجيدين فيهم، مولوده سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ووفاته فى بغداد سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م إنتهت إليه نقابة الأشراف فى حياة والده. وخلع عليه بالسواد وجدد له التقليد سنة ٤٠٣ هـ. له "ديوان شعر" مجلدين و"المجازات النبوية" و"مجاز القرآن" و"مختار شعر الصابى" و"مجموعة مادار بينه وبين أبى إسحاق الصابى من الرسائل" وشعره من الطبقة الأولى رصفاً وبياناً وإبداعاً.

انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ٢ / ٢، تاريخ بغداد ٢ / ٢٤٦، المنتظم ٧ / ٢٧٩، يتيمة الدهر ٢ / ٢٩٧ - ٣١٥، نزهة الجليس ١ / ٣٥٩، الذريعة ٧ / ١٦.

(٢) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى الربعى أبو فراس الحمدانى أمير شاعر فارس وهو ابن عم سيف الدولة كان صاحب بن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك يعنى امرأ القيس وأبا فراس - وله وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدى سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه فى غزواته ويقدمه على سائر قومه، وقلده منبجاً وحران وأعمالها فكان يسكن بمنبج "بين حلب =

الأغاني^(١) لأنه فجمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصراً رديء

= والفراة“ وينتقل في بلاد الشام وجرح في معركة مع الروم فأسروه سنة ٣٥١ هـ فامتاز شعره في الأمر بروحياته وبقي في القسطنطينية أعواماً ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبي. كانت له منبج وتملك حمص وسار ليمتلك حب، فقتل في تدمر. وقال ابن خلكان مات قتيلاً في صدد على مقربة من حمص قتله أحد أتباع سعد الدولة بن سيف الدولة وبينهما تنافس. ولد سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ومات سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م.

انظر الزيد في: وفيات الأعيان ١ / ١٢٧، تهذيب ابن عساكر ٣ / ٤٣٩، شذرات الذهب ٣ / ٢٤، المنتظم ٧ / ٦٨، الزريعة ٧ / ١١٤، يتيمة الدهر ١ / ٢٢ - ٦٢، زبدة الحلب ١ / ١٥٧.

(١) هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم الرواني الأموي القرشي أبو الفرج الأصبهاني من أئمة الأدب، الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. ولد في أصفهان سنة ٢٨٤ هـ / ٧٩٨ م ونشأ وتوفي ببغداد سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م. قال الذهبي: والعجبة “أنه أموي شيعي” وكان يبعث بتصانيفه سرّاً إلى صاحب الأندلس الأموي فيأتيه إنعامه. له عدة مصنفات منها “الأغاني” و “مقاتل الطالبين” و “نسب عبد شمس” و “القيان” و “الإمام الشعراء” و “أيام العرب” و “جمهرة النسب” و “الديارات” و “مجرد الأغاني” و “الحانات” و “الخمرون والخمارات” و “آداب الغراء”.

انظر الزيد في: وفيات الأعيان ١ / ٣٣٤، يتيمة الدهر ٢ / ٢٧٨، مفتاح السعادة ١ / ١٨٤ تاريخ بغداد ١١ / ٣٩٨، إرشاد الأريب ٥ / ١٤٩ - ١٦٨، ميزان الاعتدال ٢ / ٢٢٣، لسان الميزان ٤ / ٢٢١، حميرة أنساب العرب ٩٨، إنباه الرواة ٣٥١ / ٢

وَلَا يُعْطِيهِ الرُّونَقَ وَالْحَلَاوَةَ إِلَّا كَثْرَةُ الْمُحْفُوظِ. فَمَنْ قَلَّ حِفْظُهُ أَوْ
عَدِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شِعْرٌ وَإِنَّمَا هُوَ نَظْمٌ سَاقِطٌ وَاجْتِنَابُ الشَّعْرِ أَوَّلَى بَعْنٍ
لَمْ يَكُنْ لَهُ مُحْفُوظٌ. ثُمَّ بَعْدَ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الْحِفْظِ وَشَحْذِ الْقَرِيحَةِ
لِلتَّنْسِجِ عَلَى الْمِنَوَالِ يُقْبَلُ عَلَى النَّظْمِ وَبِالْإِكْثَارِ مِنْهُ تَسْتَحْكِمُ مَلَكَتَهُ
وَتَرْسُخُ. وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ مِنْ شَرْطِهِ نِسْيَانُ ذَلِكَ الْمُحْفُوظِ لِيُفْحَى
رُسُومُهُ الْحَرْفِيَّةُ الظَّاهِرَةُ إِذْ هِيَ صَادَّةٌ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا بِعَيْنِهَا فَإِذَا
نَسِيَهَا وَقَدْ تَكَيَّفَتِ النَّفْسُ بِهَا انْتَقَشَ الْأُسْلُوبُ فِيهَا كَأَنَّهُ مِّنَوَالٌ
يَأْخُذُ فِي النَّسْجِ عَلَيْهِ بِأَمْثَالِهَا مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى ضَرُورَةً. ثُمَّ لَا بُدَّ
لَهُ مِنَ الْخُلُوةِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَكَانِ الْمُنْظُورِ فِيهِ مِنَ الْمِيَاهِ وَالْأَزْهَارِ وَكَذَا
الْمَسْمُوعِ لِاسْتِنَارَةِ الْقَرِيحَةِ بِاسْتِجْمَاعِهَا وَتَنْشِيطِهَا بِمِلَادِ السَّرُورِ.
ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ فَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمَامٍ وَنَشَاطٍ فَذَلِكَ أَجْمَعَ
لَهُ وَأَنْشَطُ لِلْقَرِيحَةِ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمِنَوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ.
قَالُوا وَخَيْرُ الْأَوْقَاتِ لِذَلِكَ أَوْقَاتُ الْبُكْرِ عِنْدَ الْهَيْبِ مِنَ النَّوْمِ
وَقَرَاغِ الْمَعْدَةِ وَنَشَاطِ الْفِكْرِ وَفِي هَؤُلَاءِ الْجَمَامِ. وَرُبَّمَا قَالُوا إِنَّ مِنْ
بَوَائِغِهِ الْعِشْقُ وَالْإِنْشَاءُ ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ رَشِيقٍ^(١) فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ

(١) هو الحسن بن رشيق القيرواني أبو علي أديب، نقاد باحث، كان أبوه
من موالى الأزد. ولد في المسيلة "بالمغرب" سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠ م وتعلم الصياغة
ثم مال إلى الأدب وقال الشعر فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ ومدهج ملكها واشهر
فيها وحدثت فتنة فانتقل إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازr Mazzara إحدى مدنها
إلى أن توفي سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م. من كتبه "العمدة في صناعة الشعر ونقده" =

وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِذِهِ الصَّنَاعَةِ وَإِعْطَارَ حَقِّهَا وَلَمْ يَكْتُبْ فِيهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلُهُ. قَالُوا فَإِنْ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَلَا يُكْرَهُ نَفْسُهُ عَلَيْهِ. وَلَيْكُنْ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صُعُوبٌ عَلَيْهِ وَضَعُهَا فِي مَحَلِّهَا فَرِيئًا تَجِيءُ نَافِرَةً قَلْقَةً. وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْيَقِ بِهِ فَإِنْ كُلُّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسِبَةُ فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخُلَاصِ مِنْهُ بِالتَّنْقِيحِ وَالنَّقْدِ وَلَا يَضُنْ بِهِ عَلَى التَّرْكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَقْتُونٌ بِشِعْرِهِ إِذْ هُوَ بَنَاتُ فِكْرِهِ وَاخْتِرَاعُ قَرِيحَتِهِ وَلَا يَسْتَعْمَلُ فِيهِ مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ وَالْخَالِصَ مِنَ الضَّرُورَاتِ اللَّسَانِيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حَظَرَ أَئِمَّةُ اللِّسَانِ عَلَى الْمَوْلِدِ ارْتِكَابَ الضَّرُورَةِ إِذْ هُوَ فِي سَعَةٍ بِالْعُدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ. وَيَجْتَنِبُ أَيْضًا الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكِيِبِ جُهْدَهُ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا مَا كَانَتْ مَعَانِيهِ

= و"قراصة الذهب" في النقد و"الشذوذ في اللغة" و"أنموذج الزمان في شعراء القيروان" و"ديوان شعره" و"ميزان العمل في تاريخ الدول" و"شرح موطأ مالك" و"النروضة الموشية في شعراء المهديّة" و"تاريخ القيروان" و"المساوي في السراقات الشعرية".

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ١٣٣، إنباه الرواة ١/ ٢٩٨، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ٩٩.

تُسَابِقُ الْقَاطِظُ إِلَى الْفَهْمِ وَكَذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَانِي فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ فِيهَا نَوْعَ تَعْقِيدٍ عَلَى الْفَهْمِ وَإِنَّمَا الْمُخْتَارُ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَتْ الْقَاطِظُ طَبَقًا عَلَى مَعَانِيهِ أَوْ أَوْنَى فَإِنْ كَانَتْ الْمَعَانِي كَثِيرَةً كَانَ خَشَوًا وَاسْتُعْمِلَ الذَّهْنُ بِالْعَوُصِ عَلَيْهَا فَمَنَعَ الذُّوقَ عَنْ اسْتِيفَاءِ مُدْرِكِهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ. وَلَا يَكُونُ الشُّعْرُ سَهْلًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَعَانِيهِ تُسَابِقُ الْقَاطِظُ إِلَى الذَّهْنِ وَلِهَذَا كَانَ شُيُوخُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَعْيَبُونَ شِعْرَ أَبِي بَكْرٍ بْنِ خَفَاجَةَ^(١) شَاعِرَ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ لِكَثْرَةِ مَعَانِيهِ وَازْدِحَامِهَا فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَمَا كَانُوا يَعْيَبُونَ شِعْرَ الْمُتَنَبِّيِّ وَالْمَعْرِيِّ^(٢) بِعَدَمِ

(١) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله خفاجة الهواري الأندلسي شاعر عزل، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة وهو من أهل جزيرة شقر Alcya من أعمال بلنسية في شرق الأندلس، لم يتعرض لاستمache ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب وأهله. له "ديوان شعر" ولد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ومات سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١ / ١٤، بغية الملتبس ٢٠٢، صفة جزيرة الأندلس ١٠٣.

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري شاعر فيلسوف ولد سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ومات في معرة النعمان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م. كان نحيف الجسم، أصيب بالجذري صغيراً فعمى في السنة الرابعة من عمره وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر. وهو من بيت علم كبيرة في بلده. ولما مات وقف على قبره ٨٤٥ شاعراً يرثونه. وكان على بن عبد الله بن أبي هاشم. وكان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب. أما شعره وهو ديوان حكمته =

انْتَسَجَ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ كَمَا مَرَّ فَكَانَ شِعْرُهُمَا كَلَامًا مَنْظُومًا
 نَازِلًا عَنْ طَبَقَةِ الشَّعْرِ وَالْحَاكِمُ بِذَلِكَ هُوَ الذَّوْقُ. وَلَيْتَجَنَّبَ الشَّاعِرُ
 أَيْضًا الْحَوْشَى مِنَ الْأَلْفَافِ وَالْمَقْصَرِ وَكَذَلِكَ السُّوقَى الْمُبْتَذِلَ فَإِنَّهُ
 يَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ أَيْضًا فَيَصِيرُ مُبْتَذِلًا وَيَقْرُبُ مِنْ
 عَدَمِ الْإِفَادَةِ كَقَوْلِهِمُ النَّارُ حَارَةٌ وَالسَّمَاءُ فَوْقَنَا وَبِمَقْدَارِ مَا يَقْرُبُ
 مِنْ طَبَقَةِ عَدَمِ الْإِفَادَةِ يَبْعُدُ عَنْ رُتْبَةِ الْبَلَاغَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَانِ. وَلِهَذَا
 كَانَ الشَّعْرُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَالنَّبَوِيَّاتِ قَلِيلَ الْإِجَادَةِ فِي الْغَالِبِ
 وَلَا يَحْدِثُ إِلَّا الْفُحُولُ لِأَنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوِلَةٌ بَيْنَ الْجُمْهُورِ فَتَصِيرُ
 مُبْتَذِلَةً لِذَلِكَ. وَإِذَا تَعَذَّرَ الشَّعْرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ فَلْيَرَأَ وَضْهُ وَيَعَاوِدْهُ
 فَإِنَّ الْقَرِيبَةَ مِثْلَ الضَّرْعِ بَدْرٌ بِالْإِمْتِرَاءِ وَيَجِفُ بِالْتَّرْكِ. وَبِالْجُمْلَةِ
 فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ وَتَعَلُّمُهَا مُسْتَوْفَى فِي كِتَابِ الْعُمْدَةِ لِابْنِ رَشِيقٍ
 وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا مَا حَضَرَنَا بِحَسَبِ الْجُهْدِ وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ
 ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِذَلِكَ الْكِتَابِ فَفِيهِ الْبُغْيَةُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذِهِ نُبْدَةٌ كَافِيَةٌ
 وَاللَّهُ الْمَعِينُ.

(عن ابن خلدون)

= وفلسفته، فثلاثة أقسام "لزوم ما لا يلزم" ويعرف باللزوميات و "سقط الزند"
 و "ضوء السقط" وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية. وأما كتبه فكثيرة
 وفهرسها في معجم الأدباء.

انظر المزيد في: لسان الميزان ١/ ٢٠٣، إعلام النبلاء ٤/ ٧٧ و ١٨٠ و ٣٧٨،
 إنباه الرواة ١/ ٤٦، تنمة اليتيمة ٩، معجم الأدباء ١/ ١٨١، تاريخ ابن الوردي
 ٣٥٧/ ١.

قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ الْبُحْتَرِيُّ كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أُرُومَ الشَّمْرِ وَكُنْتُ
 أَرْجِعُ فِيهِ إِلَى طَبْعِي وَلَمْ أَكُنْ أَقِفُ عَلَى تَسْهِيلِ مَا خَذَهُ وَوُجُوهِ
 اقْتِضَابِهِ حَتَّى قَصَدْتُ أَبَا تَمَامٍ وَانْقَطَعْتُ فِيهِ إِلَيْهِ وَاتَّكَلْتُ فِي
 تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَالَ لِي يَا أَبَا عُبَادَةَ تَخَيَّرَ الْأَوْقَاتِ وَأَنْتَ
 قَلِيلُ الْهَمُومِ صِفْرٌ مِنَ الْغُمُومِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ فِي الْأَوْقَاتِ
 أَنَّ يَقْصِدَ الْإِنْسَانُ لِتَأْلِيفِ شَيْءٍ أَوْ حِفْظِهِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ وَذَلِكَ
 أَنَّ النَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَهَا مِنَ الرَّاحَةِ وَقَسَطَهَا مِنَ النَّوْمِ.
 وَإِنْ أَرَدْتَ التَّشْبِيبَ فَاجْعَلِ اللَّفْظَ رَفِيقًا وَالْمَعْنَى رَشِيقًا وَأَكْثِرْ فِيهِ
 مِنْ بَيَانِ الصَّبَابَةِ وَتَوَجُّعِ الْكَآبَةِ وَقَلْقِ الْأَشْوَاقِ وَلَوْعَةِ الْفِرَاقِ. فَإِذَا
 أَخَذْتَ فِي مَدِيحِ سَيِّدِ ذِي أَبَادٍ فَاشْهَرْ مَنَافِبَهُ وَأَظْهَرْ مَنَاسِبَهُ وَأَبِنْ
 مَعَالِمَهُ وَشَرَفْ مَقَامِهِ وَنَضِدِ الْمَعَانِي وَأَحْذِرِ الْمَجْهُولَ مِنْهَا وَآيَاكَ
 أَنْ تَسْتَتِينَ شِعْرَكَ بِالْأَلْفَاظِ الرَّدِيئَةِ وَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَاطٌ يَقْطَعُ الثِّيَابَ
 عَلَى مَقَادِيرِ الْأَجْسَادِ. وَإِذَا عَارَضَكَ الضَّجَرُ فَارْحُ نَفْسَكَ وَلَا لَعْمَلْ
 شِعْرَكَ إِلَّا وَأَنْتَ فَارِغُ الْقَلْبِ وَاجْعَلْ شَهْوَتَكَ لِقَوْلِ الشَّعْرِ الذَّرِيعَةَ
 إِلَى حُسْنِ نَظْمِهِ فَإِنَّ الشَّهْوَةَ نَعْمُ الْمَعِينُ. وَجُمْلَةُ الْحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ
 شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ شِعْرِ الْمَاضِيَيْنِ فَمَا اسْتَحْسَنَ الْعُلَمَاءُ فَاقْصِدْهُ
 وَمَا تَرَكُوهُ فَاجْتَنِبْهُ مُرْشِدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. قَالَ فَأَعْمَلْتُ نَفْسِي فِي
 مَا قَالَ فَوَقَفْتُ عَلَى السِّيَاسَةِ. (من كتاب زهر الآداب)

obeikandi.com

الْفَضْلُ السَّابِعُ
فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَفِيهِ قِسْمَانِ
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ
فِي الْفَصَاحَةِ

إِعْلَمْ أَنَّ هَذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلُكٌ مُتَوَعَّرٌ عَلَى النَّاهِجِ
وَلَمْ يَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ الْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ الْقَوْلَ فِيهِ
وَالْبُحْثَ عَنْهُ وَلَمْ أَجِدْ مِنْ ذَلِكَ مَا يُعُولُ عَلَيْهِ إِلَّا الْقَلِيلَ وَغَايَةَ
مَا يُقَالُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ الْفَصَاحَةَ هِيَ الظُّهُورُ وَالْبَيَانُ فَشَى
أَصْلِ الْوَضْعِ اللَّغْوِيُّ يُقَالُ أَفْصَحَ الصُّبْحُ إِذَا ظَهَرَ ثُمَّ إِنَّهُمْ يَقِفُونَ
عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ السَّرِّ فِيهِ. وَبِهَذَا الْقَوْلِ لَا تَتَبَيَّنُ حَقِيقَةُ
الْفَصَاحَةِ لِأَنَّهُ يُعْتَرِضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهِ مِنْ الْإِعْتِرَاضَاتِ. أَحَدُهَا
أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ إِذَا ظَهَرَ
وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا. أَلْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّهُ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ الْفَصِيحُ هُوَ
الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ فَقَدْ صَارَ ذَلِكَ بِالنَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ إِلَى الْأَشْخَاصِ
فَبِإِنِ اللَّفْظُ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لَزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ إِذَنْ
فَصِيحٌ عِنْدَ هَذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هَذَا. وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلِ الْفَصِيحُ

هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ لَا خِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ لِأَنَّهُ
إِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ الْفَصَاحَةِ وَعُرفَ مَا هِيَ لَمْ يَبْقَ فِي اللَّفْظِ الَّذِي
يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ. أَلَوْجُهُ الثَّالِثُ أَنَّهُ إِذَا جِيَءَ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو
عَنْهُ السَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ
كَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَصَاحَةَ وَصَفُ حُسْنِ اللَّفْظِ لَا وَصَفُ قُبْحٍ. فَهَذِهِ
الْإِعْتِرَاضَاتُ الثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ إِنَّ اللَّفْظَ الْفَصِيحَ هُوَ
الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ. وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى أَقْوَالِ النَّاسِ فِي
هَذَا الْبَابِ مَلَكَتْنِي الْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا أُعُولُ
عَلَيْهِ وَلَكثَرَةُ مُلَابَسَتِي هَذَا الْفَنَ وَمُعَارَكَتِي إِيَّاهُ انْكَشَفَ لِي السِّرُّ
فِيهِ وَسَأَوْضَحُهُ فِي كِتَابِي هَذَا وَأُحَقِّقُ الْقَوْلَ فِيهِ فَأَقُولُ إِنَّ الْكَلَامَ
الْفَصِيحَ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ وَأَعْنِي بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ
مَفْهُومَةً لَا تَحْتَاجُ فِي فَهْمِهَا إِلَى اسْتِخْرَاجٍ مِنْ كِتَابٍ لُغَةٍ. وَإِنَّمَا
كَانَتْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لِأَنَّهَا تَكُونُ مَأْلُوفَةً الْإِسْتِعْمَالِ بَيْنَ أَرْبَابِ النُّظْمِ
وَالنَّثْرِ دَائِرَةً فِي كَلَامِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَتْ مَأْلُوفَةً الْإِسْتِعْمَالِ دَائِرَةً فِي
الْكَلَامِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَافِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا. وَذَلِكَ أَنَّ أَرْبَابَ
النُّظْمِ وَالنَّثْرِ غَرِبُوا اللُّغَةَ بِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهَا وَسَبَرُوا وَقَسَمُوا فَأَخْتَارُوا
الْحَسَنَ مِنَ الْأَلْفَافِ فَاسْتَعْمَلُوهُ وَتَقَوُّوا الْقَبِيحَ مِنْهَا فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ
فَحُسْنُ الْإِسْتِعْمَالِ سَبَبٌ اسْتِعْمَالِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَاسْتِعْمَالُهَا سَبَبٌ

ظُهُورَهَا وَبَيَانَهَا. فَالْفَصِيحُ إِذَنْ مِنَ الْأَلْفَافِ هُوَ الْحَسَنُ. فَإِنْ
قِيلَ مِنْ أَى وَجْهِ عِلْمُ أَرْبَابِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ الْحَسَنُ مِنَ الْأَلْفَافِ
حَتَّى اسْتَعْمَلُوهُ وَعَلِمُوا الْقَبِيحَ مِنْهَا حَتَّى نَفَوْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلُوهُ.
قُلْتُ فِي الْجَوَابِ إِنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُحْسُوسَةِ الَّتِي شَاهَدَهَا
مِنْ نَفْسِهَا لَأَنَّ الْأَلْفَافَ دَاخِلَةٌ فِي حَيْزِ الْأَصَوَاتِ فَالَّذِي يَسْتَلِذُّهُ
السَّمْعُ مِنْهَا وَيَمِيلُ إِلَيْهِ هُوَ الْحَسَنُ وَالَّذِي يَكْرَهُهُ وَيَنْفِرُ عَنْهُ هُوَ
الْقَبِيحُ. أَلَا تَرَى أَنَّ السَّمْعَ يَسْتَلِذُّ صَوْتَ الْبُلْبُلِ مِنَ الطَّيْرِ وَصَوْتَ
الشُّحُرُورِ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمَا وَيَكْرَهُ صَوَّ الْغُرَابِ وَيَنْفِرُ عَنْهُ وَكَذَلِكَ يَكْرَهُ
نَهْيَقَ الْجِمَارِ وَلَا يَجِدُ ذَلِكَ فِي صَهِيلِ الْفَرَسِ. وَالْأَلْفَافُ جَارِيَةٌ
هَذَا الْمَجْرَى فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ لَفْظَةَ الْمُنَّةِ وَالْدَّيْمَةِ حَسَنَةٌ
يَسْتَلِذُّهَا السَّمْعُ وَأَنَّ لَفْظَةَ الْبُعَاقِ قَبِيحَةٌ يَكْرَهُهَا السَّمْعُ. وَهَذِهِ
اللَّفْظَاتُ الثَّلَاثُ مِنْ صِفَةِ الْمَطَرِ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَمَعَ
هَذَا فَإِنَّكَ تَرَى لَفْظَتِي الْمُنَّةِ وَالْدَّيْمَةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَالُوفَتِي
الْإِسْتِعْمَالِ وَتَرَى لَفْظَ الْبُعَاقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مَتْرُوكًا لَا يُسْتَعْمَلُ
وَإِنْ اسْتَعْمِلَ فَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْفَصَاحَةِ أَوْ مَنْ ذَوَقَهُ
غَيْرُ ذَوْقِ سَلِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا مُحَضًّا مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأَقْدَمِينَ فَإِنْ
حَقِيقَةُ الشَّيْءِ إِذَا عُلِمَتْ وَجَبَ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا وَلَمْ يُعْرَجْ عَلَى
مَا خَرَجَ عَنْهَا. (عن المثل السائر)

obeikandi.com

القِسْمُ الثَّانِي

فِي الْبَلَاغَةِ

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَبِيبِ الْبَصْرِيِّ الْمَوْرُودِي^(١)
فِي لَيْسَ يَصِحُّ اخْتِيَارُ الْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِالْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا
لُزُومَ الْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِي بِكَلَامٍ
مُسْتَكْرَرٍ اللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلٍّ الْمَعْنَى لِأَنَّ الْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ
مُفْرَدَةٍ وَلَا لَأَلْفَظِيَّهَا غَايَةٌ وَإِنَّمَا الْبَلَاغَةُ تَكُونُ بِالْمَعَانِي الصَّحِيحَةِ

(١) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي أقضى قضاة عصره من
العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، ولد في البصرة سنة ٣٦٤ هـ/
٩٧٤ م وانتقل إلى بغداد وولى القضاء في بلدان كثيرة ثم جعل "أقضى القضاة" في
أيام القائم بأمر الله العباسي وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وله المكانة الرفيعة
عند الخلفاء، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء في ما يصلح به خلا أو
يزيل خلافاً. نسبته إلى بيع ماء الورد ووفاته ببغداد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م. له عدة
مصنفات منها "أدب الدنيا والدين" و"الأحكام السلطانية" و"العيون والنكت"
و"الحاوي" و"نصيحة الملوك" و"تسهيل النظر" في سياسة الحكومات و
"أعلام النبوة" و"معرفة الفضائل" و"الأمثال والحكم" و"الإقناع" فقه،
"قانون الوزارة" و"سياسة الملك" وغير ذلك.

انظر المزيد في: طبقات السبكي ٩/ ٣٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦، شذرات
الذهب ٣/ ٢٨٥، آداب اللغة ٢/ ٣٣٣، مفتاح السعادة ٢/ ١٩٠.

مُسْتَوْدَعَةٌ فِي أَلْفَافٍ فَصِيحَةٍ فَتَكُونُ فَصَاحَةً الْأَلْفَافِ مَعَ صَحَّةِ
 الْمَعَانِي هِيَ الْبَلَاغَةُ وَقَدْ قِيلَ لِلْيُونَانِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ؟ قَالَ اخْتِيارُ
 الْكَلَامِ وَتَصْحِيحُ الْأَقْسَامِ. وَقِيلَ ذَلِكَ لِلرُّومِيِّ فَقَالَ حُسْنُ الْإِخْتِصَارِ
 عِنْدَ الْبَدِيهَةِ وَالْعَزَازَةُ يَوْمَ الْإِطَالَةِ. وَقِيلَ لِلْعَرَبِيِّ فَقَالَ مَا حُسْنُ
 إِبْجَازُهُ وَقُلْ مَجَازُهُ. وَقِيلَ لِلْبَدَوِيِّ فَقَالَ مَا دُونَ السَّخَرِ وَفَوْقَ
 الشَّعْرِ يَنْفُتُ الْخَرْدَلُ وَيَحْطُ الْجَنْدَلُ. وَقِيلَ لِلْحَضْرِيِّ فَقَالَ مَا كَثُرَ
 إِعْجَازُهُ وَتَنَاسَبَتْ صُدُورُهُ وَأَعْجَازُهُ. وَسَأَلَ الْحَجَّاجُ ابْنَ الْقُرَيْبِ^(١)
 عَنِ الْإِبْجَازِ قَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا تُبْطِئْ، وَأَنْ تُصِيبَ فَلَا تُخْطِئَ.
 وَقَالَ الشَّاعِرُ:

خَيْرُ الْكَلَامِ قَلِيلُ عَلَى كَثِيرٍ دَلِيلُ
 وَالْعَبَى مَعْنَى قَصِيرُ يَخْوِيهِ لَفْظُ طَوِيلُ

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارَةَ الهَلَالِي أحدَ بُلْغَاءِ الدَّهْرِ، خَطِيبٌ
 يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ: يُقَالُ "أَبْلَغُ مِنْ ابْنِ الْقُرَيْبِ" الْقُرَيْبُ أُمَةٌ. كَانَ أَعْرَابِيًّا أُمِّيًّا، يَتَرَدَّدُ
 إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ "غَرْبَى الْكُوفَةِ" فَاتَّصَلَ بِالْحَجَّاجِ فَأَعْجَبَ بِحَسَنِ مَنْطِقِهِ فَأَوْفَدَهُ عَلَى
 عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ. وَلَمَّا خَلَعَ ابْنُ الْأَشْعَثِ الطَّاعَةَ بِسَجِسْتَانَ بَعَثَهُ الْحَجَّاجُ إِلَيْهِ
 رَسُولًا، فَالتَّحَقَّقَ بِهِ وَشَهِدَ مَعَهُ وَقَعَةَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ "بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ" وَكَانَ شَجَاعًا
 فَلَمَّا انْهَزَمَ ابْنُ الْأَشْعَثِ سَيِّقَ أَيُّوبَ إِلَى الْحَجَّاجِ أَسِيرًا فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: وَاللَّهِ
 لَأَزِيرَنَّكَ جَهَنَّمَ، قَالَ: فَأَرْحَنِي فَأَنْتَى أَجِدُ حَرَهَا، فَأَمَرَ بِهِ فَضَرِبَتْ عُنُقَهُ. وَلَمَّا رَأَاهُ
 قَتِيلًا قَالَ: لَوْ تَرَكْتَنَاهُ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ كَلَامِهِ وَأَخْبَارِهِ كَثِيرَةٌ.

انظر الزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٨٢، تاريخ ابن عساكر ٣/ ٢١٦، تاريخ
 الطبري ٨/ ٣٧، تاريخ الإسلام ٣/ ٢٣٤.

وَأَمَّا صِحَّةُ الْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ أَحَدُهَا إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً. وَالثَّانِي اسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا تَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا. وَالثَّالِثُ صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا وَالْمُقَابِلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا مُقَابِلَةُ الْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْمُقَابِلَةُ لِأَنَّ الْمَعَانِي تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً. وَالثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ الْمُقَابِلَةِ وَلَيْسَ لِلْمُقَابِلَةِ إِلَّا أَحَدُ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ الْمُوَافَقَةِ فِي الْإِثْلَافِ وَالْمُضَادَّةِ مَعَ الْإِخْتِلَافِ. فَأَمَّا فَصَاحَةُ الْأَلْفَافِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ أَحَدُهَا مُجَانِبَةُ الْغَرِيبِ الْوُخْشِيِّ حَتَّى لَا يَمْجُهُ سَمْعٌ وَلَا يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ. وَالثَّانِي تَنْكِبُ اللَّفْظِ الْمُتَبَذَّلِ وَالْعُدُولُ عَنِ الْكَلَامِ الْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لَا يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّي وَلَا يَنْبُو عَنْهُ فَهْمٌ عَامِّي كَمَا قَالَ الْجَاحِظُ فِي الْبَيَانِ. أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَرُ قَوْمًا أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنَ الْكُتَّابِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ التَّمَسَّوْا مِنَ الْأَلْفَافِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعَّرًا وَحَشَا وَلَا سَاقِطًا عَامِيًّا. وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَلْفَافِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةً وَمُطَابَقَةً. أَمَّا الْمُطَابَقَةُ فَهِيَ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَافُ كَالْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ عَنْهَا. وَقَالَ بَشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ (١) فِي

(١) هو بشر بن العتمر البغدادي أبوسهل فقيه معتزلي مناظر؛ من أهل الكوفة قال الشريف المرتضى: يقال: إن جميع معتزله بغداد كانوا من مستجيبة تنسب إليه الطائفة "البشرية" منهم. له مصنفات في الاعتزال. مات ببغداد سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م.

وَصِيَّتِهِ فِي الْبَلَاغَةِ إِذَا لَمْ تَجِدِ اللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً
إِلَى مُسْتَقَرِّهَا وَلَا حَالَةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا
نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً
عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى الْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَإِنَّكَ إِنْ
لَمْ تَتَغَاطَ قَرَضَ الشَّعْرَ الْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيارَ الْمُنْثَوْرِ لَمْ يَعْيبَكَ
بِتَرْكِ ذَلِكَ أَحَدٌ وَإِذَا أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَازِقًا فِيهِمَا عَابَكَ
مَنْ أَنْتَ أَقْلُ عَيْبًا مِنْهُ وَأَزْرَى عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ فَوْقَهُ. وَأَمَّا الْمُنَاسَبَةُ
فَهِيَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى يَلِيْقُ بِبَعْضِ الْأَلْفَافِ إِمَّا لِعُرْفِ مُسْتَعْمِلِ
أَوْ لِاتِّفَاقِ مُسْتَحْسِنٍ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ تِلْكَ الْمَعَانِي بِغَيْرِ تِلْكَ الْأَلْفَافِ
كَانَتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ أَفْصَحَ وَأَوْضَحَ لِاعْتِيَادِ مَا سِوَاهَا.
وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَّغَاءِ: لَا يَكُونُ الْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ
أَسْبَقَ إِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى سَمْعِكَ.

(من كتاب أدب الدنيا والدين)

الفضل الثامن

في المبادئ والإفتتاحات

إِعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ هَذَا النُّوعِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعْرِ
أَوِ الرُّسَائِلِ دَالًّا عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ إِنْ كَانَ فَتَحًا
فَفَتَحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذَلِكَ يَجْرِي
الْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي وَقَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ مَبْدِئِ
الْكَلَامِ مَا الْمُرَادُ بِهِ. وَحُكْمُ هَذَا النُّوعِ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا
أَسَاسُهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ إِذَا نَظَّمَ قَصِيدَةً أَنْ يَنْظُرَ فَإِنْ كَانَتْ
مَدِيحًا صِرْفًا لَا يَخْتَصُّ بِحَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ فَهُوَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ
يَفْتَتِحَهَا بِغَزَلٍ أَوْ لَا مَفْتَتِحَهَا بِغَزَلٍ بَلْ يَرْتَجِلُ الْمَدِيحَ ارْتِجَالًا مِنْ
أَوَّلِهَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ:

إِنْ حَارَبَ الْأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ

فِي ذَا الْمَقَامِ فَعُذْرُهَا مَقْبُولُ

سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَا دِيحِيكَ فَمَا لَهُمْ

أَبَدًا إِلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ

إِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إِلَّا مُحْسِنٌ

فَالْمُحْسِنُونَ إِذَنْ لَدَيْكَ قَلِيلٌ

فَإِنَّ هَذَا الشَّاعِرَ ارْتَجَلَ الْمَدِيحَ مِنَ الْقَصِيدَةِ فَآتَى بِهِ كَمَا تَرَى
حَسَنًا لَائِقًا. وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصِيدَةُ فِي حَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَاثِثِ كَفَتْحِ
مُقْفَلٍ أَوْ هَزِيمَةٍ جَيْشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُبْدَأَ فِيهِ
بِغَزَلٍ وَإِنْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى ضَعْفِ قَرِيحَةِ الشَّاعِرِ وَقُصُورِهِ عَنِ الْغَابَةِ
أَوْ عَلَى جَهْلِهِ بِوَضْعِ الْكَلَامِ فِي مَوَاضِعِهِ فَإِنْ قِيلَ إِنَّكَ قُلْتَ يَجِبُ
عَلَى الشَّاعِرِ كَذَا وَكَذَا فَلَمْ ذَلِكَ قُلْتَ فِي الْجَوَابِ إِنَّ الْغَزَلَ رَقَّةٌ
مَخْصُصَةٌ وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تُنْظَمُ فِي الْحَوَاثِثِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا مِنْ فَحْلِ
الْبِكَلَامِ وَمَتَبِينَ الْقَوْلِ وَهِيَ ضِدُّ الْغَزَلِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأَسْمَاعَ تَكُونُ
مُتَطَلِّعَةً إِلَى مَا يُقَالُ فِي تِلْكَ الْحَوَاثِثِ وَالْإِبْدَاءُ بِالْخَوْصِ فِي
ذِكْرِهَا لَا الْإِبْتِدَاءُ بِالْغَزَلِ إِذِ الْمِهْمُ وَاجِبُ التَّقْدِيمِ.

وَمِنْ أَدَبِ هَذَا النَّوعِ أَنْ لَا يَذْكُرَ الشَّاعِرُ فِي افْتِتَاحِ قَصِيدَةٍ
بِالْمَدِيحِ مَا يَتَطَيَّرُ مِنْهُ. وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى أَدَبِ النَّفْسِ لَا إِلَى أَدَبِ
الدُّرْسِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحْتَرَزَ مِنْهُ فِي مَوَاضِعِهِ كَوَصْفِ الدِّيَارِ بِالذُّثُورِ
وَالْمَنَازِلِ بِالْعَفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَشْتَبِثِ الْأَلْفِ وَدَمِّ الزَّمَانِ وَلَا سِيَّمَا
إِذَا كَانَ فِي التَّهْنِئَةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ قُبْحًا وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ
فِي الْخُطُوبِ النَّازِلَةِ وَالنَّوَائِبِ الْحَادِثَةِ وَمَتَنَى كَانَ الْكَلَامُ فِي
الْمَدِيحِ مُفْتَتِحًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ تَطَيَّرَ مِنْهُ سَامِعُهُ.

وَأِنَّمَا خُصِّتِ الْإِبْتِدَاءَاتُ بِالِاخْتِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ السَّمْعُ
 مِنَ الْكَلَامِ فَإِذَا كَانَ الْإِبْتِدَاءُ لَاتِّقًا بِالْمَعْنَى الْوَارِدِ، بَعْدَهُ تَوَفَّرَتْ
 الدَّوَاعِي عَلَى اسْتِمَاعِهِ. وَمِنْ قَبِيحِ الْإِبْتِدَاءَاتِ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ
 مَا بَالَ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ لَأَنَّ مُقَابِلَةَ الْمَفْدُوحِ بِهَذَا الْخِطَابِ
 لَا خَفَاءَ بِقُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ تَجَرَّعُ أَسَى قَدْ
 أَقْفَرَ الْأَجْرَعُ الْقَرْدُ. وَإِنَّمَا أَلْقَى أَبَا تَمَامٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكْرُوهِ تَتَبَعُهُ
 لِلتَّجَنُّيسِ بَيْنَ تَجَرَّعٍ وَالْأَجْرَعِ. وَكَذَلِكَ اسْتَقْبَحَ قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ
 قُوَادَ مَلَاهُ الْحَزْنَ حَتَّى نَصَدَعَا. فَإِنَّ ابْتِدَاءَ الْمَدِيحِ بِمِثْلِ هَذَا طَبِيعَةٌ
 يَبْنُو عَنْهَا السَّمْعُ وَهُوَ أَجْدَرُ بِأَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءً مَرْتَبِيَّةً لَا مَدِيحِ
 وَمَا أَعْلَمَ كَيْفَ يَخْفَى هَذَا عَلَى مِثْلِ الْبُحْتَرِيِّ وَهُوَ مِنْ مُفْلِقِي
 الشُّعْرَاءِ. وَحَكِيَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ الْمُعْتَصِمُ مِنْ بِنَاءِ قَصْرِهِ بِالْمِيدَانِ جَلَسَ
 فِيهِ وَجَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِي زِينَتِهِمْ فَمَا
 رَأَى النَّاسُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَاسْتَأْذَنَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ
 الْمُوصِلِيَّ^(١) فِي الْإِنْشَادِ فَأَذِنَ لَهُ فَأَنْشَدَ شِعْرًا حَسَنًا أَجَادَ فِيهِ

(١) هو إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْمُونِ التَّمِيمِيِّ الْمُوصِلِيِّ أَبُو مُحَمَّدٍ ابْنُ النَّدِيمِ
 مِنْ أَشْهُرِ نَدَمَاءِ الْخُلَفَاءِ، تَفَرَّدَ بِصَنَاعَةِ الْغِنَاءِ، وَكَانَ عَالِمًا بِاللُّغَةِ وَالْمَوْسِقَى وَالتَّارِيخِ
 وَعِلْمِ الدِّينِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ، رَاقِبًا لِلشُّعْرِ حَافِظًا لِلْأَخْبَارِ، شَاعِرًا، لَهُ تَصَانِيفٌ،
 مِنْ أَفْرَادِ الدَّهْرِ أَوْبًا وَظَرْفًا وَعِلْمًا، فَارَسَى الْأَصْلَ، مَوْلَدُهُ سَنَةَ ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م
 وَوَفَاتَهُ بِبَغْدَادَ سَنَةَ ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م وَعَمِيَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَتَيْنِ، نَادِمُ الرَّشِيدِ وَالْمَأْمُونِ
 وَالْوَائِقِ الْعَبَّاسِيِّينَ. وَلَمَّا مَاتَ نَعِيَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَقَالَ: ذَهَبَ صَدْرُ عَظِيمٍ مِنْ جَمَالٍ =

إِلَّا أَنَّهُ اسْتَفْتَحَهُ بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَعَفَائِهَا فَقَالَ:

يَا دَارُ غَيْرِكَ الْبَلَى وَمَحَاكِ

يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَبْلَاكَ

فَتَطِيرَ الْمُعْتَصِمُ^(١) بِذَلِكَ وَتَغَامَرَ النَّاسُ عَلَى إِسْحَاقَ كَيْفَ ذَهَبَ

= الملك وبهائه وزينته. وألف كتبًا كثيرة، قال ثعلب: رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء، من لغات العرب كلها سماعة من تصانيفه "كتاب أغانيه" التي غنى بها، و"أخبار عزة الميلاد" و"أغاني معبد" و"أخبار ذئب الرمة" و"الاختيار من الأغاني" ألف للوائق و"مواريث الحكماء"، و"جواهر الكلام" و"الرقص والزفن" و"الندماء" و"النغم والإيقاع" و"قيان الحجاز" و"النوادر المتخيرة". انظر الزيد في: الفهرست ١/ ١٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٦٥، سبط اللاي ١٣٧ و٢٠٩ و٥٠٩، الأغاني ٥/ ٢٦٨ - ٤٣٥، لسان الميزان ١/ ٣٥٠، تاريخ بغداد ٦/ ١٣٨ إنباه الرواة ١/ ٢١٥، الذريعة ١/ ٣٢٠، نزهة الألبا ٢٧٧.

(١) وهو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور أبو إسحاق المعتصم بالله العباسي خليفة من أعظم خلفاء هذه الدولة، بويج بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون وبعهد منه وكان بطرسوس. وعاد إلى بغداد بعد سبعة أسابيع في السنة نفسها. وكان قوى الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه ولا يعمل في جسمه الأسنان وكره التعليم في صغره، فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أميًا وهو فاتح عمورية Amoyium من بلاد الروم الشرقية في خبر مشهور، وهو ياني مدينة سامرا سنة ٢٢٢ هـ حين ضاقت بغداد بجنده وهو أول من أضاف اسمه اسم الله تعالى من الخلفاء، فقليل "المعتصم بالله" وكان لين العريكة رضى الخلق، اتسع ملكه جدًا. وكان له سبعون ألف مملوك. خلافته ٨ سنين و ٨ أشهر، وخلف ٨ بنين و ٨ بنات وعمره ٤٨ سنة. مات بسامرا سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م وكان مولده سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م. وكان أبيض أصهب حسن الجسم مربوعًا طويل اللحية. =

عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ وَطُولِ خِدْمَتِهِ لِلْمُلُوكِ. فَإِذَا أَرَادَ
الشَّاعِرُ أَنْ يَذْكُرَ دَارًا فِي مَدِيحِهِ فَلْيَذْكُرْ كَمَا ذَكَرَ أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ^(١)
حَيْثُ قَالَ:

قَصُرُ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ

خَلَعْتُ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْأَيَّامُ

وَمَا أَجْدَرَ هَذَا الْبَيْتَ بِمُقْتَتَحِ شِعْرِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي
أَنْشَدَهُ لِلْمُعْتَصِمِ فَإِنَّهُ لَوْ ذَكَرَ هَذَا أَوْ جَرَى مَجْرَاهُ لَكَانَ حَسَنًا
لَا تَقًا. وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ أَحْذَقِ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ مَنْ أَجَادَ الْإِبْتِدَاءَ
وَالْمُطْلِعَ. أَلَا تَرَى إِلَى قَصِيدَةِ أَبِي نُوَاسٍ الَّتِي أَوَّلُهَا:

= انظر المزيد: الكامل ١٤٨ / ٦ - ١٧٩، تاريخ اليعقوبي ١٩٧ / ٣، فواتح
الوفيات ٢ / ٢٧٠، تاريخ بغداد ٣ / ٣٤٢، مروج الذهب ٢ / ٢٦٩ - ٢٧٨، البدء
والتاريخ ٦ / ١١٤، تاريخ الطبري ٦ / ١١، تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٦، النيران
٦٣ - ٧٣.

(١) هو أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد من بني سليم من قيس عيلان شاعر
فحل كان معاصرًا لبشار. ولد باليمامة ونشأ في البصرة. وانتقل إلى الرقة واستقر
ببغداد، مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد فأعجب الرشيد
به، فأثر وحسنت حاله، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م
وأخباره كثيرة.

انظر المزيد في: الأغاني ١٧ / ٣٠ - ٤٤، تهذيب ابن عساكر ٣ / ٥٩ - ٦٣،
معاهد التنصيص ٤ / ٦٢، التبريزي ٢ / ١٦٩، تاريخ بغداد ٧ / ٤٥، الشعر والشعراء
٣٧٣، خزنة البغدادي ١ / ١٤٣، الموشح ٢٩٥.

يَا ذَا رُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَوْمَ

لَمْ يَبْقَ فِيكَ بَشَاشَةٌ تُسْتَامُ

فَإِنَّهَا مِنْ أَشْرَفِ شَعْرِهِ وَأَعْلَاهُ مَنْزِلَةٌ وَهِيَ فِيكَ بَشَاشَةٌ تُسْتَامُ
فَإِنَّهَا مِنْ أَشْرَفِ شَعْرِهِ وَأَعْلَاهُ مَنْزِلَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَكْرَهَةٌ
الْإِبْتِدَاءِ لِأَنَّهَا فِي مَدَحِ الْخَلِيفَةِ الْأَمِينِ وَافْتِتَاحِ الْمَدِيحِ بِذِكْرِ الدَّيَّارِ
وَدُثُورِهَا مِمَّا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ وَلَا سِيَّمَا فِي مُشَافَهَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ
وَلِهَذَا يُخْتَارُ فِي ذِكْرِ الْأَمَاكِينِ وَالْمَنَازِلِ مَا رَقَّ لَفْظُهُ وَحَسَّنَ النُّطْقُ
بِهِ كَالْعُذَيْبِ وَالْعُؤَيْرِ وَرَامَةَ وَبَارِقِ وَالْعَقِيقِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِبْتِدَاءِ أَنْ لَا يَكُونَ مِمَّا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ
فَقَطُّ فَإِنَّ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ مَا يُسْتَقْبَحُ وَإِنْ لَمْ يُتَطَيَّرْ مِنْهُ كَقَوْلِ أَبِي
تَمَّامٍ قَدْكَ أَتَيْتُ أَرْبَبْتَ فِي الْغُلُوءِ وَكَقَوْلِهِ ثِقَى جَمَحَاتِي لَسْتُ
طَوْعُ مُؤْنَبِي وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ أَقْلُ فَعَالِي بَلَهْ أَكْثَرُهُ مَجْدُ.
وَالْعَجَبُ أَنَّ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ الْمُفْلَعَيْنِ يَبْتَدِئَانِ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَلَهُمَا
مِنَ الْإِبْتِدَاءِ الْجَسَنَةِ مَا أَذْكُرُهُ. أَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَإِنَّهُ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ
الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْمُعْتَصِمَ عِنْدَ فَتْحِهِ مَدِينَةَ عُمُورِيَّةَ فَقَالَ:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّيْبِ

بِيضِ الصَّفَائِحِ لَأَسْوَدُ الصَّحَائِفِ فِي
مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشُّبْكِ وَالرَّيْبِ^(١)
فَلَمَّا فَتَحَتْ بَنَى أَبُو تَمَامٍ مَطْلَعَ قَصِيدَتِهِ عَلَى الْمَغْنَى وَجَعَلَ
السَّيْفَ أَصْدَقَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي خَبُرَتْ بِإِمْتِنَاعِ الْبَلَدِ وَاعْتِصَامِهَا.
وَقَوْلُهُ فِي أَوَّلِ مَرثِيَةٍ:

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا
وَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَانِعَا

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ الْحَسَنَةِ فِي شِعْرِهِ
كَقَوْلِهِ فِي قَصِيدَةٍ يَمْدُحُ بِهَا كَافُورًا وَكَانَ قَدْ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ
سَيِّدِهِ نَزْغَةٌ فَبَدَأَ قَصِيدَتَهُ بِذِكْرِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فَقَالَ:
حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي

وَأَذَا عَنْهُ أَلْسُنُ الْحُسَادِ

وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْإِبْتِدَاءِ وَنَادِرِهِ. وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ فِي سَيْفِ
الدَّوْلَةِ^(٢) وَكَانَ ابْنُ الشُّمَشِيقِ حَلَفَ لِيَلْقَيْنَهُ كِفَاحًا فَلَمَّا التَّقِيَا

(١) ورد هذه الأبيات في ديوانه ٤٠ / ١ - ٤١

(٢) هو علي بن عبد الله بن سيف أو يوسف أبو الحسن سيف الدولة الأمير صاحب
المتنبي وممدوحه يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع باب
سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. ولد في ميارفاقين سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥ م
بديار بكر ونشأ شجاعاً مهذباً عانى الهمة وملك واسطاً وعاد إلى حلب فملكها سنة =

لَمْ يُطِيقْ ذَلِكَ وَوَلَّى هَارِبًا فَافْتَتَحَ أَبُو الطَّيِّبِ قَصِيدَتَهُ بِفَحْوَى
الْأَمْرِ فَقَالَ:

عَقَبَى الْيَمِينِ عَلَى عَقَبَى الْوَعَى نَدَمُ
مَاذَا يَزِيدُكَ فِي إِقْدَامِكَ الْقَسَمُ
وَفِي الْيَمِينِ عَلَى مَا أَنْتَ وَاعِدُهُ
مَا دَلَّ أَنَّكَ فِي الْمِيعَادِ مِنْهُمْ
وَمِنْ الْبَدِيعِ النَّادِرِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ مُتَغَرِّلاً فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ
الْقَافِيَةِ وَهِيَ:

أَتَرَاهَا لِكثْرَةِ الْعُشَّاقِ
تَحَسَّبُ الدَّمْعُ خُلُقَةً فِي الْمَاقِي
وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْأُمَثَلَةِ كَافٍ لِلْمُنْعَمِ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ.
(انتهى ملخصاً ببعض تصرف عن المثل السائر)

= ٣٣٣ هـ وتوفي فيها سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م ودفن في ميفارقين أخباره ووقائعه مع
الروم كثيرة. وكان كثير العطايا، مقرباً لأهل الأدب يقول الشعر الجيد الرقيق، وقد
ينسب إليه ما ليس له. وهو أول من ملك حلب من بني حمدان. وله أخبار كثيرة مع
الشعراء خصوصاً المتنبي والسري الرفاء والنامي والبيغاء والوأواء وتلك الطبقة.

انظر المزيد في: يتيمة الدهر ١ / ١٨ - ٢٢، الوفيات ١ / ٣٦٤، زبدة الحلب
١١١ / ١ - ١٥٢،

الفصل التاسع

فِي التَّخْلِصِ وَالْإِقْتِصَابِ

إِعْلَمْ أَنَّ التَّخْلُصَ هُوَ أَنْ يَأْخُذَ مُؤَلِّفُ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى مِنَ
الْمَعَانِي قَبِينًا هُوَ فِيهِ إِذْ أَخَذَ فِي مَعْنَى آخَرَ غَيْرَهُ وَجَعَلَ الْأَوَّلَ
سَبَبًا إِلَيْهِ فَيَكُونُ بَعْضُهُ أَخْذًا بِرِقَابِ بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ
كَلَامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامًا آخَرَ بَلْ يَكُونُ جَمِيعُ كَلَامِهِ كَأَنَّمَا أُفْرِغَ
إِفْرَاغًا وَذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حِذْقِ الشَّاعِرِ وَقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ
يُنَاطِقَ الْكَلَامَ تَضِيقُ عَلَيْهِ وَيَكُونُ مُتَبِعًا لِلْوَزْنِ وَالْقَافِيَةِ فَلَا تُؤَاتِيهِ
الْأَلْفَاظُ عَلَى حَسَبِ إِرَادَتِهِ. وَأَمَّا الثَّائِرُ فَإِنَّهُ مُطْلَقُ الْعِنَانِ يَمْضِي
حَيْثُ شَاءَ فَلِذَلِكَ يَشُقُّ التَّخْلُصُ عَلَى الشَّاعِرِ أَكْثَرَ مِمَّا يَشُقُّ
عَلَى النَّائِرِ.

وَأَمَّا الْإِقْتِصَابُ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّخْلِصِ وَذَلِكَ أَنْ يَقْطَعَ الشَّاعِرُ كَلَامَهُ
الَّذِي هُوَ فِيهِ وَيَسْتَأْنِفَ كَلَامًا آخَرَ غَيْرَهُ مِنْ مَدِيحٍ أَوْ هَجَاءٍ أَوْ غَيْرِ
ذَلِكَ وَلَا يَكُونُ لِلثَّانِي عِلَاقَةٌ بِالْأَوَّلِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْعَرَبِ وَمَنْ يَلِيهِمْ
مِنْ الْمُخَضَرِّمِينَ. وَأَمَّا الْمُحَدِّثُونَ فَإِنَّهُمْ تَصَرَّفُوا فِي التَّخْلِصِ فَأَبْدَ
عُما وَأَظْهَرُوا مِنْهُ كُلَّ غَرِيبَةٍ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

يَقُولُ فِي قَوْمِ صَحْبِي وَقَدْ أَخَذَتْ
 مِنَّا السُّرَى وَخَطَى الْمَهْرَبَةَ الْقَوْدِ
 أَمَطِّلِعِ الشَّمْسَ تَبْغِي أَنْ تَوْمَ بِنَا
 فَقُلْتُ كَلَّا وَلَكِنْ مَطَّلِعِ الْجُودِ
 وَقَوْلُهُ:

غَيْدَاءُ جَادَ وَلِي الْحُسْنِ سُنَّتَهَا
 فَصَاغَهَا بِيَدَيْهِ رَوْضَةً أَنْفَا
 يُضْحِي الْعَدُولُ عَلَى تَأْنِيهِهِ كَلِفًا
 بَعُذْرَ مَنْ كَانَ مَشْغُوقًا بِهَا كَلِفًا
 وَدَعَّ فَوَادَكَ تَوْدِيْعَ الْفِرَاقِ فَمَا
 أَرَاهُ مِنْ سَفَرِ التَّوْدِيْعِ مُنْصَرِفًا
 يُجَاهِدُ الشُّوقَ طَوْرًا ثُمَّ يَجْذِبُهُ
 جِهَادُهُ لِلْقَوَافِي فَشَى أَبِي دُلْفَا
 وَمِمَّا جَاءَ مِنَ التَّخْلُصَاتِ الْحَسَنَةِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّئِيِّ فِي قَصِيدَتِهِ
 الدَّالِيَّةُ:

خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ
 فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمَنِي الْقَصَائِدِ
 فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ
 وَلَكِنْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

وَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الْأَخِذُ بَعْضُهُ بِرِقَابِ بَعْضٍ أَلَا تَرَى إِلَى الْخُرُوجِ
إِلَى مَدْحِ الْمَمْدُوحِ فِي هَذِهِ الْأَيَّاتِ كَأَنَّهُ أُفْرِغَ فِي قَالِبٍ وَاحِدٍ
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ أَيْضًا وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ مَا أَتَى بِهِ مِنَ التَّخْلِصَاتِ وَهُوَ
فِي قَصِيدَتِهِ التَّائِيَةِ:

وَمَطَالِبٍ فِيهَا الْهَلَاكُ أَتَيْتُهَا
ثَبَّتَ الْجَنَانِ كَأَنَّنِي لَمْ آتِهَا
وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرْتُهَا
أَقْوَاتٍ وَحَشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا
أَقْبَلْتُهَا غَرَّرَ الْجِيَادُ كَأَنَّمَا
أَيْدِي بَنَى عِمْرَانَ فِي جَبَهَاتِهَا
الْثَّابِتِينَ فُرُوسَةً كَجُلُودِهَا
فِي ظَهْرِهَا وَالطُّعْنَ فِي لَبَّاتِهَا
فَكَأَنَّمَا نُبِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ
وَكَأَنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
تِلْكَ النُّفُوسُ الْغَالِبَاتُ عَلَى الْعُلَى
وَالْمَجْدُ يَغْلِبُهَا عَلَى شَهَوَاتِهَا
سُقِيتْ مَنَابِتُهَا الَّتِي سَقَتْ الزُّورَى
بِيَدِي أَبِي أَيُّوبَ خَيْرِ نَبَاتِهَا

فَانْظُرْ إِلَى هَذَيْنِ التَّخْلُصِينَ الْبِدِيعِينَ فَلَاوُلْ خَرَجَ بِهِ إِلَى مَذَحِ
قَوْمِ الْمَمْدُوحِ وَالثَّانِي خَرَجَ بِهِ إِلَى نَفْسِ الْمَمْدُوحِ وَكِلَاهُمَا قَدْ أَغْرَبَ
فِيهِ كُلُّ الْإِغْرَابِ. وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُهُ:

إِذَا صَلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفَاتِكَ

وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ

وَالَا فَخَانَتْنِي الْقَوَافِي وَعَاقَنِي

عَنِ ابْنِ عُبَيْدٍ اللَّهُ ضَعْفُ الْعَزَائِمِ

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ يَقْصِدُ الشَّاعِرُ التَّخْلُصَ فَيَأْتِي بِهِ قَبِيحًا كَمَا فَعَلَ
فَقَالَ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْغَزَلِ إِلَى الْمَدِيحِ:

غَدَا بِكَ كُلُّ خَلْوٍ مُسْتَهَامًا

وَأَصْبَحَ كُلُّ مُسْتَوْرِ خَلِيعًا

أَحْبَبُكَ أَوْ يَقُولُوا جَرُّ نَمْلٍ

ثَبِيرٍ أَوْ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْجَمَالِ

وَهَذَا تَخْلُصٌ كَمَا تَرَاهُ بَارِدٌ لَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ مَسْحَةِ الْجَمَالِ شَيْءٌ
وَهَهُنَا يَكُونُ الْإِقْتَضَابُ أَحْسَنَ مِنَ التَّخْلُصِ. فَيَنْبَغِي لِسَالِكِ هَذِهِ
الطَّرِيقَةِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَصُوغُهُ فَإِنْ آتَاهُ التَّخْلُصُ حَسَنًا كَمَا
يَنْبَغِي وَإِلَّا فَلْيَدْعُهُ وَلَا يَسْتَكْرِهْهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ هَذَا كَمَا فَعَلَ
الْمُتَنَبِّيُّ.

وَقَدْ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ فِي مَوْضِع آخَرَ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا أَحْيَا
وَأَيَسَّرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا فَقَالَ:

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي
إِلَى الَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا
وَالْإِضْرَابُ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّخْلُصِ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِهِ وَمَا أَلْقَاهُ فِي
هَذِهِ الْهَوَا إِلَّا أَبُو نُوَّاسٍ فَإِنَّهُ قَالَ:

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ^(١)
هَوَاكِ لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَلِهَذَا نَظَائِرُ وَأَشْيَاءُ فَلْتَبْخَيْرِ النَّاطِمِ.

وَالْإِقْتَضَابُ الْوَارِدُ فِي الشَّعْرِ كَثِيرٌ لَا يُحْصَى وَالتَّخْلُصُ بِالنَّسْبَةِ
إِلَيْهِ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرٍ وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ التَّخْلُصُ فِي شِعْرِ الشَّاعِرِ

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي وأخوه في
الرضاع، كان من أجود الناس، استوزره الرشيد مدة قصيرة ثم ولاه خراسان سنة
١٧٨ هـ فحمنت فيها سيرته وأقام إلى أن فُتِكَ الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ وكان
الفضل عنده ببغداد فقبض عليه وعلى أبيه يحيى وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما
وأجرى عليهما الرزق، واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافة. وتوفي الفضل في
سجنه ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م وكان مولده سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٥ م قال ابن الأثير: كان
الفضل من محاسن الدنيا لم يُر في العالم مثله.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١ / ٤٠٨، تاريخ الطبري ١٠ / ٦٢ و ٦٩
و ١٠٩، تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٤.

الْمُجِيدِ إِلَّا قَلِيلًا بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْمُقْتَضِبِ مِنْ شِعْرِهِ فَمِنْ الإِقْتِضَابِ
 قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ فِي قَصِيدَتِهِ النُّونِيَّةِ الَّتِي أَوَّلُهَا يَا كَثِيرَ النَّوْحِ فِي
 الدَّمَنِ وَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ هِيَ عَيْنُ شِعْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُكْمَلْ حُسْنُهَا
 بِالتَّخْلُصِ مِنَ الْغَزَلِ إِلَى الْمَدِيحِ بَلِ اقْتَضَبَهُ اقْتِضَابًا فَبَيَّنَّا هُوَ يَصِفُ
 الْخَمْرَ وَيَقُولُ:

فَاسْقِنِي كَأْسًا عَلَى عَذَلٍ
 كَرِهْتَ مَسْمُوعَهُ أُذُنِي
 مِنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ
 خَيْرَ مَا سَلَسَلَتْ فِي بَدَنِي
 مَا اسْتَقَرَّتْ فِي فُؤَادِ فَتَى
 قَدَرَى مَا لَوْعَةُ الْخَزَنِ
 حَتَّى قَالَ:

تَضَحَّكَ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ
 قَامَ بِالْآثَارِ وَالسُّنَنِ
 سَنَ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدَوْا
 فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنْ
 فَأَكْثَرُ مَدَائِحِ أَبِي نُوَّاسٍ مُقْتَضَبَةٌ هَكَذَا. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ
 الْبُخْتَرِيِّ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِالْجُودَةِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْفَتْحَ بْنَ

خَاقَانَ وَذَكَرَ لِقَاءَهُ الْأَسَدَ وَقَتْلَهُ إِيَّاهُ وَأَوَّلَهَا أَجْدَكَ مَا يَنْفَكُ يَسْرَى
لِزَيْنَبَا وَهِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ شِعْرِهِ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُوفَّقْ فِيهَا لِلتَّخْلِصِ مِنْ
الْغَزْلِ إِلَى الْمَدِيحِ فَإِنَّهُ بَيْنَمَا هُوَ فِي تَغَزُّلِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

عَهْدْتُكَ إِنْ مَنَيْتَ مَنَيْتَ مَوْعِدًا
جَهَامًا وَإِنْ أَبْرَقْتَ أَبْرَقْتُ خُلْبًا
وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الَّذِي مَضَى
دَلَالٌ فَمَا إِنْ كَانَ إِلَّا تَجَنُّبًا
فَوَا أَسَفًا حَتَامًا أَسْأَلُ مَا نَعْبَا
وَأَمْسِنُ خَوَانًا وَأُعْتَبُ مُذْنِبًا
حَتَّى قَالَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ:

أَقُولُ لِرَكَبٍ مُعْتَفِينَ تَدْرُعُوا
عَلَى عَجَلٍ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ غِيَهَبًا
رُدُّوا نَائِلَ الْفَتْحِ بَنَ خَاقَانَ إِنَّهُ
أَعَمُّ نَدَى فِيكُمْ وَأَيْسَرُ مَطْلَبًا

فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ بِغَيْرِ وُجْهَةٍ وَلَا سَبَبٍ. وَكَمَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي
قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِالْجُودَةِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا الْفَتْحَ بَنَ خَاقَانَ^(١) أَيْضًا

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن عرطوج أبو محمد أديب شاعر، فصيح،
كان في نهاية الفطنة والذكاء، فارسي الأصل من أبناء الملوك، أتخذته التوكل
العباسي أخا له، استوزره وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وكان يقدمه =

وَأَوَّلُهَا مَتَى لَاحَ بَرَقُ أَوْ بَدَأَ طَلَلُ قَفَرُ فَبَيْنَا هُوَ فِي غَزَلِهَا حَتَّى
قَالَ:

لَعَمْرُكَ مَا الدُّنْيَا بِنَاقِصَةِ الْجَدَى
إِذَا بَقِيَ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ وَالْقَطْرُ
فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِيحِ مُقْتَضِبًا لَا مُتَعَلِّقًا بِهِ. وَأَمْثَالُ هَذَا فِي
شِعْرِهِ كَثِيرٌ.

وَالْتَخْلُصُ غَيْرُ مُمَكِّنٍ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَهُوَ مِنْ مُسْتَصْعَبَاتِ عِلْمِ
الْبَيَانِ فَلْيَتَدَبَّرِ الشَّاعِرُ وَبِهَذَا الْقَدَرِ مِنَ الْأَمْثِلَةِ كِفَايَةٌ لِلطَّالِبِ.
(انتهى ملخصاً عن المثل السائر)

= على جميع أهله وولده. واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن.
وَأَلَفَ كِتَابًا فِي "الصِّيدِ وَالْجَوَارِحِ" وَكِتَابَ "الرُّوْضَةِ وَالزَّهْرِ" وَقَتَلَ مَعَ الْمُتَوَكِّلِ
سَنَةَ ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م.

انظر المزيد في: الفهرست ١/ ١١٦، فوات الوفيات ٢/ ١٢٣، تاريخ ابن
الشفنة ١/ ١٧٧، إرشاد الأريب ٦/ ١١٦، المزرباني ٣١٨.

الفضل العاشر

في الختام

هَذَا النُّوعُ يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَالنَّائِرِ أَنْ يَتَأَتَّقَا فِيهِ غَايَةَ لِقَانِقِ
وَيَجُودَا فِيهِ مَا اسْتَطَاعَا لِأَنَّهُ آخِرُ مَا يَنْتَهِي إِلَى السَّمْعِ وَيَتَرَدَّدُ
صَدَاهُ فِي الْأُذُونِ وَيَعْلَقُ بِحَوَاشِي الذِّكْرِ فَهُوَ كَمَقْطَعِ الشَّرَابِ يَكُونُ
آخِرُ مَا يَمُرُّ بِالْفَهْمِ وَيَعْرَضُ عَلَى الذَّوْقِ فَيَشْعُرُ مِنْهُ بِمَا لَا يَشْعُرُ
مِنْ سِوَاهُ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي الذَّوْقِ فَيَشْعُرُ مَرَارَةً وَكَانَ حُلُوَ الثَّمَالَةِ
طَيِّبَ الْمُرْزَعَةِ سَتَرَ هَذَا الْحُلُو تِلْكَ الْمَرَارَةَ وَكَانَ هُوَ الْبَاقِي وَهِيَ
الذَّاهِبَةُ. وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخِتَامُ مُمَيَّزًا عَنْ سَائِرِ الْكَلَامِ
قَبْلَهُ بِنُكْتَةٍ لَطِيفَةٍ أَوْ أَسْلُوبِ رَشِيقٍ أَوْ مَعْنَى بَلِيغٍ وَيُخْتَارُ لَهُ
مِنْ اللَّفْظِ الرَّقِيقُ الْحَاشِيَّةُ الْخَفِيفُ الْمَحْمِلُ عَلَى السَّمْعِ السَّهْلُ
الزُّرُودُ عَلَى الطَّبْعِ وَيُتَجَافَى بِهِ عَنِ الْإِسْهَابِ وَالتَّعْقِيدِ وَالثَّقَلِ
وغير ذلك مما تنبوعته الأُذُنُ وَتَثْقُلُ مَوُونَتُهُ عَلَى الذِّكْرِ فَتَذْهَبُ
طَلَاوُتُهُ وَتَضِيعُ بِهِ مَحَاسِنُ مَا قَبْلَهُ لِأَنَّ كُلَّ تَالٍ مِمَّا سَبَقَهُ يَمْحُو
أَثَرَ مَا تَلَاهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْآخِرِ مَا يَخْلِفُ تِلْكَ الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا
ذَهَبَتْ بِأَسْرِهَا طَلْقًا. وَمَتَى جَوْدُ الشَّاعِرِ أَوْ الثَّائِرُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ

كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى سَعَةِ صَدْرِهِ وَقُوَّةِ ضَرِيبَتِهِ. وَأَنَّهُ لَمْ يُسْرِعْ إِلَيْهِ
الضَّجَرُ وَلَمْ يَسْتَوِلْ عَلَيْهِ الْحَصَرُ وَلَمْ يَنْتَزِفْ مَادَّتَهُ الْإِنْفَاقُ وَيَكُونُ
مَثَلُهُ مَثَلُ الْفَرَسِ الْجَوَادِ كُلَّمَا ذَهَبَ مِنْهُ جَرَى نَشِطَ لِعَيْرِهِ وَكَانَ
فِي آخِرِ شَوْطِهِ أَقْوَى مِنْهُ فِي أَوَّلِهِ.

وَحُكْمُ الْخِتَامِ أَنْ يَكُونَ مُؤَذِّنًا بِتِمَامِ الْكَلَامِ بِحَيْثُ يَكُونُ وَاقِعًا
عَلَى آخِرِ الْمَعْنَى فَلَا يَنْتَظِرُ السَّمِيعُ شَيْئًا بَعْدَهُ وَأُظْهِرَ مَا يَكُونُ
هَذَا فِي الْقِصَصِ الْمُسَوِّقَةِ كَمَا فِي الْمَقَامَاتِ مَثَلًا فَإِنَّ نِهَايَةَ ضِ
الْوَاقِعَةِ تَدُلُّ عَلَى خِتَامِ الْمَعْنَى فَيُخْتَمُ بِهِ اللَّفْظُ. وَإِذَا لَمْ يَكُنِ
الْمَعْنَى دَالًّا بِنَفْسِهِ عَلَى الْخِتَامِ حَسُنَ أَنْ يُدَلَّ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ آخَرَ
يُذَكِّرُ عَلَى عَقِبِ الْفَرَاغِ مِنْ سِيَاقَةِ الْأَغْرَاضِ السَّابِقَةِ وَحُكْمُهُ أَنْ
يَكُونَ مُنْتَزَعًا مِمَّا سَبَقَهُ فَيَقْفَى بِهِ تَقْرِيرًا لَشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَغْرَاضِ
أَوْ إجمالًا لِفَضْلِهَا مُورِدًا عَلَى وَجْهِهِ مِنْ وُجُوهِ الْبَلَاغَةِ أَوْ الْكَلَامِ
الْجَامِعِ أَوْ مُخْرَجًا مُخْرَجَ الْمَثَلِ أَوْ الْحِكْمَةِ أَوْ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ
مِمَّا تَعَلَّقَهُ الْخَوَاطِرُ وَتَقَيَّدُهُ الْأَذْهَانُ. وَهَذَا مِنْ أَوْعَرِ مَسَالِكِ هَذَا
النَّوعِ وَالظَّافِرُونَ بِقَلَابِدِهِ قَلِيلٌ لِعِزَّتِهِ وَامْتِنَاعِهِ وَأَكْثَرُ مَا يَجِيءُ فِي
الشُّعْرِ أَوْ مَا يُنْحَى فِيهِ مِنْحَاهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْبَلَاغَةِ وَالْجَزَالَةِ وَذَلِكَ
كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِ:

وَمَا أَخْصُكَ فِي بُرءٍ بِتَهْنِئَةٍ
إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

وَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ:

أَوْلَى الْبَرِيَّةِ حَقًّا أَنْ تُرَاعِيَهِ

عِنْدَ السُّرُورِ الَّذِي آسَاكَ فِي الْحَزَنِ

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا

مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

وَكَقَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ^(١) فِي خِتَامِ إِحْدَى مَقَالَاتِهِ إِنَّ الطُّيْشَ فِي

الْكَلَامِ يُتَرْجَمُ عَنْ جَفَةِ الْأَحْلَامِ. وَمَا دَخَلَ الرُّفُقُ شَيْئًا إِلَّا زَانَهُ

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشري (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقبه بجار الله وتنقل في البلدان. ثم عاد إلى الجرجانية "من قرى خوارزم" ولد سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م وتوفي فيها سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م ومن أشهر كتبه "الكشاف" في تفسير القرآن، و"أساس البلاغة" و"الفصل" و"المقامات" و"الجبال والأمكنة والمياة" و"المقدمة" معجم عربي فارسي مجلدان، و"مقدمة الأدب" في اللغة و"الفائق" في غريب الحديث و"المستقصى" في الأمثال و"نوابح الكلم" أدب و"القسطاس" في العروض و"نكت الأعراب في غريب الإعراب" رسالة، و"الأنموذج" اقتضبه من الفصل و"أطواق الذهب" وله "ديوان شعر" وكان معتزلي المذهب، مجاهداً شديداً الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشف وغيره.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ٢ / ٨١، إرشاد الأريب ٧ / ١٤٧، لسان الميزان ٦ / ٤، ظفر الواله ١ / ١٢٥، نزهة الألبأ ٤٦٩، الجواهر المضيئة ٢ / ١٦٠، آداب اللغة ٣ / ٤٦، مفتاح السعادة ١ / ٤٣١.

وَمَا زَانَ الْمُتَكَلِّمَ إِلَّا الرِّزَانَةُ. وَكَقَوْلِهِ فِي خِتَامِ أُخْرَى وَمَنْ جَاءَ
بِالدَّعْوَةِ يُخْفِيهَا وَيَخَافُ الْمَدْعُوَ فِيهَا فَيَا لَهَا مُحْكَمَةٌ ذَاتَ نِيرَيْنِ
مُشْرِقَةٌ ذَاتَ نُورَيْنِ قَدْ أَخْرَجَتْهَا الْخُفْيَةُ مِنْ بَابِ الرِّئَاءِ وَأَدْخَلَتْهَا
الْخِيفَةُ فِي بَابِ الْإِتْقَاءِ وَلَكِنَّ النَّاسَ عَيْنَ التَّحْقِيقِ رُقُودٌ وَالنَّظَرَ
الصَّحِيحَ بَيْنَهُمْ مَفْقُودٌ. وَأَمَّا فِي غَيْرِ ذَلِكَ فَلَا أَكْثَرَ فِي هَذَا الضَّرْبِ
أَنْ يُضْمَنَ غَرَضًا آخَرَ مِنَ الدُّعَاءِ أَوْ عَرَضَ النَّفْسِ عَلَى خِدْمَةِ
الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ أَوْ تَوَقُّعِ الْجَوَابِ مِنْهُ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ
مَقَامَاتُ الْكَلَامِ وَتَقْتَضِيهِ دَوَاعِي الْحَالِ وَهِيَ طَرِيقَةُ الْكُتَابِ
وَالْمَوْلُودِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ ذَهَابًا إِلَى الْفَالِ أَوْ التَّبَرُّكِ أَوْ زِيَادَةِ التَّحَبُّبِ
وَالْتَقَرُّبِ مِنْ مَقَامِ الْمَخَاطَبِ أَوْ الْمُدُوحِ وَأَكْثَرُ مَا يَخْتِمُونَهَا فِي
النَّثْرِ بَعْدَ الْأَغْرَاضِ الْمَذْكُورَةِ بِقَوْلِهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَوْ بِمَنْ اللَّهُ
وَفَضْلُهُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ
كَقَوْلِ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ فِي خِتَامِ صُورَةِ عَهْدِ
لِلْمَلِكِ الْأَشْرَفِ صَلَاحِ الدِّينِ خَلِيلِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ اسْتِخْلَافَهُ
هَذَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا وَلِلْمُعْتَدِينَ انْقِصَامًا وَيُطْفِئُ بِمَاءِ سُنُوفِهِ نَارَ
كُلِّ حَظَبٍ حَتَّى تُصْبِحَ كَمَا أَصْبَحَتْ نَارُ سَمِيِّهِ بَرْدًا وَسَلَامًا.
وَقَوْلِ الْوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ الْقَاسِمِ فِي خِتَامِ جَوَابِ وَإِنْ قَسَيْمَكَ
الْمَجْلُ لِقَدْرِكَ وَحَمِيمَكَ الْمُتَنَاهِي فِي بَرِّكَ تَصَفَّحَ ثَنَاءَكَ مَجْدًا.

وَطَوَّلًا وَاسْتَوْضَحَ إِخَاءَكَ عَقْدًا وَقَوْلًا وَأَعْطَاكَ صَفْقَةً يَمِينِهِ عَلَى
 الْمُوَدَّةِ وَالْإِكْبَارِ وَوَلَاكَ صُفْوَةً يَقِينِهِ صَادِقَةَ الْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ فَلَنْ
 تَزَالَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَجِدُهُ حَيْثُ تَنْشُدُهُ وَتَعْهَدُهُ عَلَى أَيْرٍ اتَّعْتَقْدُهُ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَقَوْلِ الْبَدِيعِ الْهَمْدَانِيِّ^(١) فِي خِتَامِ رِسَالَةِ وَلِلشَّيْخِ
 الرَّئِيسِ^(٢) فِي تَشْرِيفِي بِالْجَوَابِ وَتَعْرِيفِي بِسَارِّ الْأَخْبَارِ وَتَكْلِيفِي

(١) هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني أبو الفضل أحد أئمة الكتاب.
 له "مقامات" أخذ الحريري أسلوب مقاماته عنها. وكان شاعراً وطبقته في الشعر
 دون طبقته في النثر. ولد في همدان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م وانتقل إلى هراة سنة
 ٣٨٠ هـ فسكنها ثم ورد نيسابور سنة ٣٨٢ هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته. فلقى
 أبا بكر الخوارزمي فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمداني في
 الآفاق. ولما مات الخوارزمي خلاله الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان
 وغزنة إلا دخلها ولا ملكاً ولا أميراً إلا فاز بجوائزه. كان قوى الحافظة يضرب
 المثل بحفظة ويذكر أن أكثر "مقاماته" ارتجال وأنه كان ربما يكتب الكتاب
 مبتدئاً بآخر سطره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه، وله
 "ديوان شعر" صغير. و "رسائل" عدتها ٢٣٣ رسالة ووفاته في هراة مسموماً سنة
 ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م.

انظر المزيد في: تجميعه ٤ / ١٦٧، معجم الأدباء ١ / ٩٤، وفيات الأعيان
 ٣٩ / ١، معاهد التنصيص ٣ / ١١٣، نهاية الأرب ٣ / ١١٠، دائرة المعارف
 الإسلامية ٣ / ٤٧١.

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي على شرف الملك الفيلسوف
 الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعات والإلهيات. أصله من
 بلخ ومولده في إحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م نشأ وتعلم في بخارى =

سَوَائِحِ الْأَوْتَارِ وَتَضْرِيفِي عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ رَأْيُهُ الْمُوَفَّقُ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى. وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ فِي الشَّعْرِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّئِ:

فَلَا حَظُّ لَكَ الْهَيْجَاءُ سَرَجًا

وَلَا ذَاقَتْ لَكَ الدُّنْيَا فِرَاقًا

وَقَوْلُهُ:

أَتَمَّ سَعْدَكَ مَنْ أَعْطَاكَ أَوَّلَهُ

وَلَا اسْتَرَدَّ حَيَاةً مِنْكَ مُعْطِيهَا

وَقَوْلُ ابْنِ الْوَرْدِيِّ^(١):

= وطاف البلاد وناظر العلماء واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همدان وثار عليه
عسكرها ونهبوا بيته فتواری ثم صار إلى أصفهان وصنف بها أكثر كتبه وعاد
في أواخر أيامه إلى همدان فعرض في الطريق ومات بها سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م.
قال ابن قيم الجوزية: كان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل
دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين، وقال ابن تيمية: تكلم ابن سينا في أشياء
من الإلهيات والنبويات والامداد، والشرائع، لم يتطلم بها سلفه ولا وصلت إليها
عقولهم، ولا بلغت علومهم فإنه استنادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ عن
أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو أهل بيته معروفين عند المسلمين بالإلحاد،
صنف نحو مائة كتاب بين مطول ومختصر الشعر الفلسفي الجيد، ودرس اللغة
مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ١٥٢، تاريخ حكماء الإسلام ٢٧ - ٧٢،
تاريخ ابن العبري ٣٢٥، خزنة البغدادي ٤/ ٤٦٦، لسان الميزان ٢/ ٢٩١.

(١) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين =

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مَا أَحَبُّ وَصَالِكُمْ

وَعَايَةِ مَجْهُودِ الْمُقِلِّ سَلَامٌ

وَكَثِيرًا مَا يَخْتِمُ النَّائِرُ بِقَوْلِهِ وَالسَّلَامُ وَهُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الْاِخْتِصَارِ
وَالِإِيْحَازِ وَيَكْتُرُ اسْتِعْمَالُهُ فِي رَسَائِلِ الْعَتَبِ وَالْمَوْجِدَةِ وَمَا أَشْبَهَ
ذَلِكَ. وَقَدْ يَخْتِمُ بِلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أَوْ بِقَوْلِهِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
أَوْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَالُ.
وَرُبَّمَا خَتَمَ بِمَثَلٍ أَوْ بِبَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ وَلَكَ كَقَوْلِ الْخَوَارِزْمِيِّ فِي
خَتَامِ رِسَالَةٍ وَلَقَدْ سَلَكَ الْأَمِيرُ مِنَ الْكَرَمِ طَرِيقًا يَسْتَوْجِشُ فِيهَا.
لِقَلَّةِ سَالِكِيهَا وَيَتِيهِ فِي قِفَارِهَا لِدُرُوسِ آثَارِهَا وَأَنْهِيْدَامِ مَنَارِهَا

= ابن الوردي المعري الكندي شاعر أديب مؤرخ. ولد في معرة النعمان بسورية سنة
٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م وول القضاء بمنيح وتوفي بحلب سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م من كتبه
"ديوان الشعر" فيه بعض نظمه ونثره و "تيممة المختصر" تاريخ مجلدان يعرف
بتاريخ ابن الوردي جعله ذيلًا لتاريخ أبي الفداء وخلاصة له. و "تحرير الخصاصة
في تيسير الخلاصة" نثر فيه ألفية ابن مالك في النحو و "الشهاب الثاقب"
تصوف و "اللباب في الإعراب" نحو و "شرح ألفية ابن مالك" نحو و "شرح ألفية
ابن معطي" نحو و "ألفية" في تعبير الأحلام، و "تذكرة الغريب" منظومة في
النحو و "مقامات" أدب و "منطق الطير" منظومة في التصوف و "بهجة الحاوي"
نظم بها الحاوي الصغير في فقه الشافعية.

انظر المزيد في: فوات الوفيات ١١٦ / ٢، بغية الوعاة ٣٦٥، النجوم الزاهرة
١٠ / ٢٤٠، اعلام النبلاء ٥ / ٣، آداب اللغة ٣ / ١٩٢، طبقات السبكي ٦ / ٢٤٣،
الدرر الكامنة ٣ / ١٩٥، بدائع الزهور ١ / ١٩٨.

أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى صُعُوبَةِ الطَّرِيقِ وَقَلَّةِ الرِّبْقِ وَأَلْهَمَهُ صَبْرًا يَهْوُونَ
عَلَيْهِ احْتِمَالِ الْمَغَارِمِ وَيَقْرُبُ عَلَيْهِ مَسَافَةُ الْمَكَارِمِ. فَبِالصَّبْرِ تُنَالُ
الْعُلَى وَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى. وَقَوْلُهُ أَيْضًا فِي خِتَامِ
تَسْلِيَةٍ وَلَكِنَّ الْغَضَبَ يُنْسِي الْحُرُمَاتِ وَيَذْفُنُ السَّيِّئَاتِ وَيَخْلُقُ
لِلْبَرَى جَنَائَاتٍ :

وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَعَلَهُ
لَكَا لَدَهْرٍ عَارٍ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

انْتَهَى وَفِي هَذَا الْقَدْرِ غُنْيَةٌ لِلْبَصِيرِ وَفِي تَتَبُعِ رَسَائِلِهِمْ وَخُطْبِهِمْ
وَدَوَاوِينِ الشُّعَرَاءِ مِنْهُمْ قَدِيمُهَا وَحَدِيثُهَا مَوْئِنٌ كَافِيَةٌ بِهِدَايَةِ اللَّهِ
وَتَسْدِيدِهِ.